
أبوالقاسم محمّد بدری

الشاعران المتشابهان

الشابي والتيجاني

أبو القاسم محمد بدري

الشاعران المتشابهان

الشابي والتيجاني



ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

الإهـــداء

إلى روح والدي الذي علّمني فأحسن تعليمي

أبو القاسم

دراسة أدبية (تحليلية) نقدية تبين أين
يتلاقى أدب قطرين ينهلان من رحيق واحد :
هو يقظة الحس القومى والشعور الإنسانى .

المؤلف



أبو القاسم الشابي

شعري

شعري نفاثة قلـبي إن جاش فيه شعوري
لولاه ما انجاب عـني غيم الحيـاة الخطـير
ولا وجدت اكتئـابي ولا وجـدت سروري

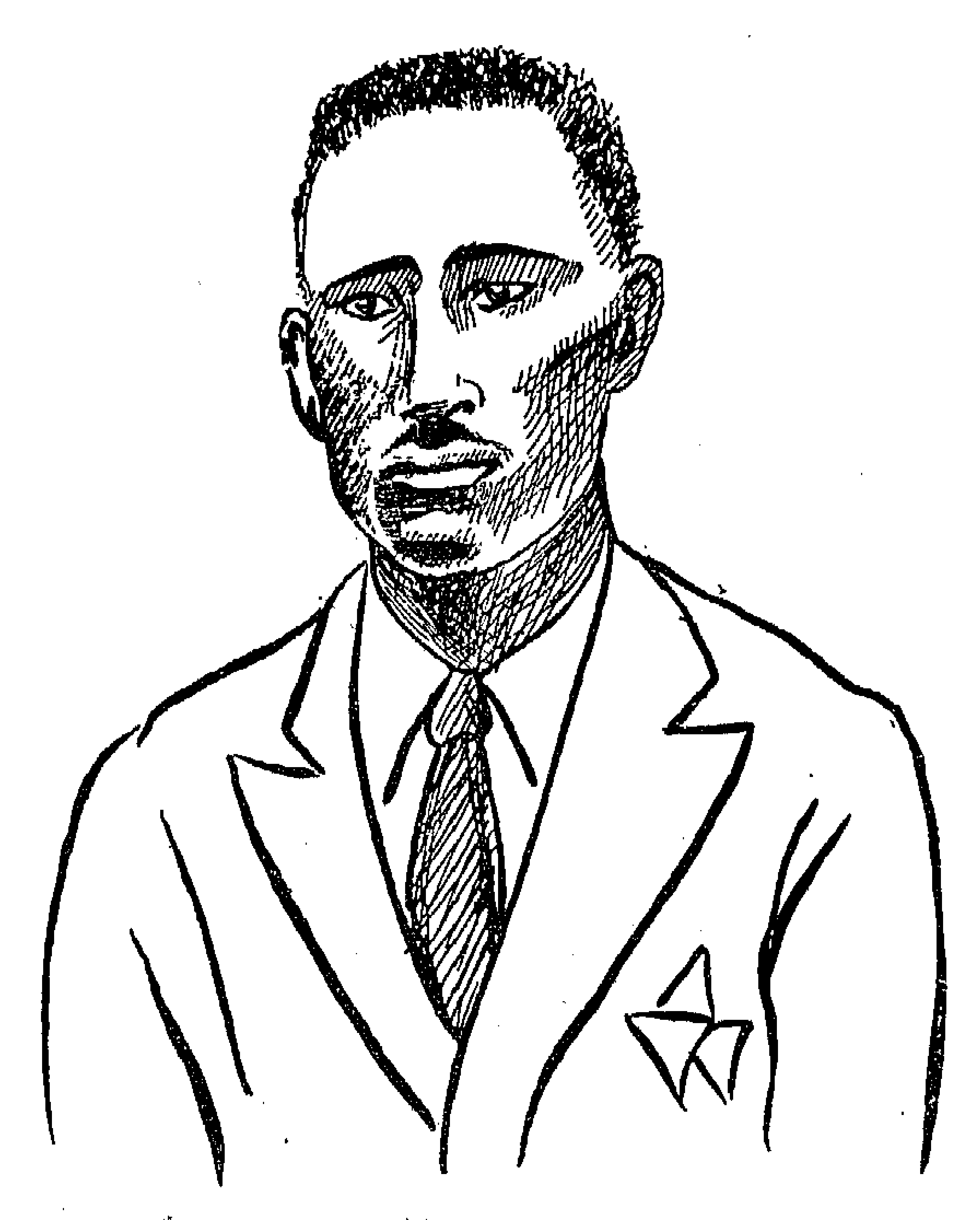
به تــرانى حــزيناً أبكى بدمــع غــزير
به تــرانى طـروباً أجــر ذيــل حبورى

* * *

لا أنظم الشعــر أرجــو به رضــاء أمــير
بمدحــة أو رثــاء تُهــدى لرب السريــر
حسبى إذا قلــت شعراً أن يرتضيــه ضميرى

* * *

لا أقرض الشعر أبغــى به اقتنــاص نــوال
الشعر إن لم يــكن فى جمالــه ذا جــلال
فإنما هــو طيــف يسعى بــوادى الضــلال
يقضى الحيــاة طريداً فى ذلــة واعتــزال
ما الشعــر إلا فضــاءٌ فيــه يــرف خيــالى



التيجانى يوسف بشير

قطرات

قطرات من الندى رقـــراقة يصفق البشر دونها والطلاقة

فهى دفق من عالم كله قلـ ـب خفوق ولوعة دفاقة

عالم الحسن والجمال ودنيا الحب (م) والقلب .. وجـــده واشتيـــاقه

يتحدرن من «مفاجع» أيـا مى ، ومهوى مدامعى الرقراقه
ويرجّعن من «مفاتن» دنيـا ى صَدًى يزحم الهوى أبواقـه

* * *

فى مساب الندى ، وبين ذراعى زهراتُ الرُّبى من الشعر طاقة
من دمى يستدرها حَرُّ أنفـا سى لهيباً أسميته «إشراقه» (١)

* * *

قطرات من الصِّبا والشباب الْ غضّ منسـابة بـه منسـاقه
ورِهام من روحىَ الهائم الولْ هان أمكنت فى الزمـان وثاقـه
ظل يهفو إلى السماء ويشكو لوعة الروح هاهنا واحتراقـه
يتحدرن من «معابد» أيـا مى حنيناً أسميته «إشراقـه»

* * *

قطرات من التأمـل حيرى مطرقات على الدجى مبراقـه
تترسلن فى جوانب آفـا قى شعاعاً أسميته «إشراقه»

* * *

من هما الشاعران المتشابهان ؟

هما شخصان معاصران ، وشاعران متشابهان ، يفترقان فى بعض الميزات ، ويلتقيان فى كثير من المواهب والصفات ، التى أفصلها فى

(١) ديوان المرحوم التيجانى — صدرت منه الطبعة الأولى عام ١٣٦١ هـ — ١٩٤٢ م

بحثي هذا تفصيلا يوضح حياتهما من شعرهما ، ويبين ما بين شخصيهما من وحدة فى الأفكار ، وتقارب فى دقة المشاعر ورقة الإحساس ، وامتزاج فى الأرواح ، وإن تعذر ائتلاف الأشباح .

ويعزى ذلك إلى أسباب كثيرة ، منها بعد المكان ، واختلاف أحوال القطرين ، وما ينشأ عن ذلك من صعوبة الاختلاط والمعرفة .

ترجع أسباب صلتى بهما فى البحث والاستقراء ، إلى قراءة ما ينتجان من أدب ، ويؤلفان من شعر . وإن معرفتى بهما لم تتعد المعرفة الفنية لنظمهما ، حيث لم يجمع بيننا تعارف أو تآلف أو لقاء . ولكن ألفت ما بين قلوبنا رابطة الأدب ووثقت ما بين نفوسنا وشائج الإسلام ، وصلات العروبة التى اندثرت ، ثم بعثت قوية بفضل الجامعة العربية ، التى تربط الماضى بالحاضر ، وتصل المستقبل بالغابر ، وتجمع البلاد العربية على وحدة الفكر والوجدان ، والمبدأ والأوطان .

الشابي :

انحدر أبو القاسم الشابي من أسرة عريقة ذات مجد ودين . قبيلته « الشابية » وبلدته « توزر » عاصمة الواحات التونسية . شاد طرفاً من علوم الشريعة الإسلامية : كالفقه والتوحيد والأصول ، وأخذ نصيباً من الثقافة العربية : كالنحو والصرف والبيان والأدب .

درس ذلك كله على الأساليب العتيقة من متن وشرح وحاشية .

وفاز بشهادة « التطويع » فى جامع الزيتونة ،. ثم التحق بمدرسة الحقوق التونسية ، وحصل على إجازة الحقوق ثم أصيب بداء الصدر الذى صده عن إتمام دراسته ، فانقطع عن العلم ، والتفت إلى معالجة المرض العضال ، الذى ظل يغاديه ويراوحه ، حتى اخترم حياته ، وهو فى ربيع شبابه ، وعنفوان مجده[١]

التيجانى :

وأما التيجانى يوسف بشير فهو شاب ينتمى إلى أسرة من كرائم الأسر السودانية ، سليلة أعرق القبائل العربية . تلقى تعليمه فى المعهد العلمى بأم درمان ، فاستقى من نبعه الصافى علماً واسعاً ، وأدباً رائعاً . وأعانه ذوق مرهف ، وذكاء وقاد على فهم الحقائق العلمية ، وتمييز الدقائق البيانية ، والاشتغال بهما مع العلوم الدينية ، فى زمن ساد معهده فيه أساليب التعليم العتيقة ، التى لم تُعن بفن الأدب عنايتها بعلوم الدين . فأصيب أيضاً بداء الصدر العضال ، الذى غالبه حقبة من الزمن ؟ ثم صرعه المرض . وهو فى سن باكرة نضج فيها إنتاجه ، وبلغ ذروة الإتقان ، وموضع الافتتان وافاه أجله المحتوم ، وهو ناضر الصبا ، ريان الشباب ،

---

(١) من مقال « لحسن سباطة » نشر فى مجلة الرسالة فى العدد (٧٠) الصادر بتاريخ الاثنين ٢٧ من رجب سنة ١٣٥٣ هـ الموافق ٥ من نوفمبر سنة ١٩٣٤ م السنة الثانية .

فى مقتبل حياته الأدبية، ومفتتح عبقريته الشعرية ، وأمته وأسرته أحوج ما تكونان إليه لإعواز العوض عنه ، وعظم الفجيعة فيه .

وجه الشبه فى حياتهما :

يخيل إلى من يتعرف إليهما ببحث شعرهما ، واستقراء حياتهما ، أنهما أخوان شقيقان . بل يكاد يجزم الباحث أنهما حبيبان متباعدان فى المكان والاتصال الشخصى ، متقاربان فى الناحية الزمنية ، والصلات النفسية والعقلية ، لشدة تشابه السمات ، ووضوح الميزات والخصائص .

فهما يتشابهان ، بل يتفقان فى كثير من نواحى حياتهما الخاصة والعامة .

نشأ كل منهما فى بيئة دينية محافظة، من حيث التربية والتعليم، ونهل الاثنان من فيض الثقافة العربية الإسلامية فى الناحية الدينية والأدبية . ولم يقتصرا على هذا اللون من الثقافة ، لأنهما أحسا بالحاجة إلى المزيد من نواحى المعرفة الإنسانية . وشعرا أيضاً بضرورة مزج الثقافتين — العربية والغربية معاً — حتى يتولد من هذا التركيب عنصر جديد يغذى روحيهما ، ويوسع من أفق تفكيرهما ونظرتهما للحياة .

غير أن اللغة كانت تحول بينهما وبين تحقيق ضالتهما ، لأن كليهما لم يتعلم لغة أجنبية . ولكن بفضل عزيمتهما ، وعلو همتهما استطاعا

أن يستقيا من الترجمات النير الصافى ، الذى أصقل ذهنيهما وأطلق خياليهما ، ولقح أفكارهما بلقاح المعرفة الواسعة ، لمظاهر الحياة المتعددة الجوانب : من فلسفة ، وسياسة ، وفنون ، وعلوم ، وآداب .

وتشابها أيضاً فى العلة ، فقد اصطلح عليهما داء الصدر ، الذى عاق نموهما الجسمى ، وتقدمهما العقلى فى العمل والتفكير ، فماتا فى عنفوان الشباب ، عندما تفتقت زهرتاهما عن أكمامهما عبقتين فواحتين بأريج النضج والاكتمال ، وشذا الإنتاج والإبداع .

ومن غريب مصادفة القدر ، أن فقدهما حدث فى زمنين متقاربين ، وسببت وفاتهما خسارة فادحة لكل من أمتهما وأسرتيهما ، لأنهما فى أشد ما يكونان حاجة إليهما . إذ أن رسالتيهما لم تتما بلوغاً فى الناحيتين : الأدبية والعائلية .

مات الفقيدان — طيب الله ثراهما وأخلد ذكراهما — بعد أن اقتطفا من متاع الحياة خمسة وعشرين ربيعاً[1] لم ينعما فيها بأطايب العيش ولذائذ الحياة . ولم يستكملا فيها مراحل تطورهما فى النظم والتصوير ، وابتكار النماذج العالية الخالدة فى الأدب الشرقى والشعر العربى المستقى من الفن الغربى ، والمذهب الواقعى ، والفلسفة الإسلامية .

---

(١) عاش أبو القاسم الشابى من سنة ١٩٠٩ إلى سنة ١٩٣٤ م ؛ وعاش التيجانى يوسف بشير من سنة ١٩١٢ إلى سنة ١٩٣٧ م .

الشبه فى فلسفتهما :

وقد اتفق أن نظرتهما للحياة كانت متقاربة التقارب كله وليس هذا يحدث بين شخصين إلا فى النادر القليل . رغب كلاهما عن حياة العبث والمجون ، التى انجرف فى تيارها أكثر الشبان من كل لون وجنس . ونزع كل منهما نزعة التصوف والزهد عن الملذات الجسدية ، من غير أن يعيشا بمعزل عن الحياة الاجتماعية فى بلديهما ، والإحساس بأحوال مواطنيهما .

لقد تأثرا أيما تأثير بما يسود وطنهما من جمود وتقهقر وانحطاط وما يحيط ببلادهما من فقر وجهل ومرض . فسخطا على عيشهما، وتبرما بقومهما ، وتشاءما من حياتهما تشاؤماً مبعثه حب الإصلاح ، وانتقاد ما يريان من أحوال وأعمال ، وما يحسان به من ضعف وخضوع واستعباد .

وأودعا كل ذلك فى شعر رائع أخاذ زاخر ، يجيش ثورة واضطراماً على التقاليد والعادات القبيحة ، ويفيض ناقماً باغضاً المنازعات والحزبيات . ثم يتدفق عذوبة ويتفجر إخلاصاً وحماساً فى معالجة المشكلات ، وتقوية الأواصر والصلات ، بين المواطنين المخلصين ، وأبناء العروبة الغر الميامين .

وحينما تقرأ شعرهما تحس بهذا التبرم والسخط ، يفيض به كل بيت ، وينطق بمدلوله كل قصيد . فهما يتخيلان أفاويق السعادة فى أحلامهما المعسولة التى تبعدهما عن واقعهما المرير ، وحاضرهما البائس اليائس . وفى هذا النوع من الخيال تنعقد الموازنة بين حياة كالحة قاتمة تكبلها القيود ، وتحيط بها السدود ، وبين حياة مرحة فرحة ، ناعمة هانئة ، يودها كل متوفز الحس ، نبيل الشعور لقومه ووطنه . ولن تتضح الصورة ، وتبرز الظلال حولها ، إلا فى التغنى بمباهج النعيم ، والنواح على شواظ الجحيم « والضد يظهر حسنه الضد » كما يقول الشاعر الأديب.

فالشابى يعبر عن تبرمه وضجره بهذه الأغرودة التى تحوى أمله وألمه فى نغم ممزوج بالغناء والبكاء . إنك تسمعه فتطرب له حينما يرفع عقيرته منشداً بأناشيد الحبور فى شعر سلس عذب جميل :

أبداً تدللنا الحياة بكل أنواع السرور
وتبث فينا من مراح الكون ما يغرى الوقور
ونظل نقفز أو نغنى ، أو نثرثر ، أو ندور
لا نسأم اللهو الجميل ، وليس يدركنا فتور
فكأننا نحيا بأعصاب من الفرح المثير
وكأنما نمشى بأقدام مُجَنَّحــــةٍ تطير

ثم ينبعث صوته بالنشيج باكياً ضياع نعيمه الذى ذوى ، وفقد

زهره الذى ذبل ، فى أبيات حزينات موجعات :

اه توارى فجرىَ القدسى فى ليل الدهور
وَفنىَ كما يفنى النشيد الحلو فى صمت الأثير
وأرى الأباطيل الكثيرة ، والمآثم ، والشرور
وتصادم الأهواء بالأهواء فى كل الأمور
ومذلة الحق الضعيف ، وعزة الذل الحقير
وأرى ابن آدم سائراً ، فى رحلة العمر القصير
ما بين أهوال الحياة ، وتحت أعباء الضمير
متسلقاً جبل الوجود الوعر ، كالشيخ الضرير
دامى الأكف ، ممزق الأقدام ، مغبّر الشعور
مترنح الخطوات ، ما بين المزالق والصخور

ثم يسخط على حظه فى الحياة ، ونصيبه فى الوجود ، فيعبر عنه بأبلغ وصف ، وأجمل بيان :

ماذا جنيت من الحياة ومن تجاريب الدهور
غير الندامة والأسى والبؤس والدمع الغزير

يجمع كل هذا الإحساس فى قصيدة واحدة سماها « الجنة الضائعة » . وليس شىء أدل على ما فيها من آلام وأحلام من هاتين اللفظتين ــ جنة

سعد بنعيمها ، وتذوق حلاوتها ، وعاش مستمتعاً بها لحظات معدودات ، ثم شقى بزوالها وتجرع من آلامها ، الأسى واليأس والدمع الغزير .

وإذا أخذت نفسك بقراءة شعره ، وتحليل نظمه ، ملك العجب فؤادك ، وسيطر على حواسك دهش واستغراب لهذه النفس المتشائمة المتفائلة ، وهذه الروح المنقبضة المنبسطة . فهى آناً تمرح فى الغاب ، وتغنى فى الأزاهير والرياض ، وتهيم فى مروج الطبيعة ، مستأنسة بمناغاة الطيور ، وهديل الحمائم . ثم يعبس فى نظرها الكون ، وتتجهم لها الحياة ، فتنتقل من مرحها وغنائها إلى حزنها وأنينها .

فنظرة الشاعر للحياة هى التى عكست على نفسه هذه الصورة القاتمة الممزوجة بحلو ومر ، وشهد وصاب . ولا مرية فى أن فلسفة الشابى فى كل ألوان شعره الذاتى أو الموضوعى ، مستمدة من إحساسه بذاته القلقة ، ونفسه الثائرة على ما فى الكون من نظم وأوضاع . وقد يجيب الشاعر أحياناً على حيرته بما يوضح هذا الإحساس ، ويبين هذه النظرة القاتمة الحزينة :

ما هذه الدنيا الكريهة وَيلَهـــا   حقت عليها لعنـــةُ الأحقاب

الفجر يولـــد باسمــاً متهلــلاً   فى الكون بين دجنّــة وضبـــاب

وفى قصيدته « الأبد الصغير » تسمع صدى هذه الحيرة الحائرة ، وهى تقفز من أزهار السرور والحبور ، إلى أشواك الكآبة والتعاسة .

تأمل نظمه ، لتعرف كيف يصوغ فلسفته التى تركبت من عنصرين ــ هما مزاج السرور والأحزان ، أو بتعبير آخر نشوة اللذة التى تعقبها مرارة الألم :

يا قلب كم من مسرات وأخيلة ... ولذةٍ يتحامى ظلها الألم
غنت بفجرك صوتاً حالماً مرحاً ... نشوان ، ثم توارت ، وانقضى النغم
وكم مشت حولك الدنيا بأجمعها ... حتى توارت ، وسار الموت والعدم
وشيدت حولك الأيام أبنيــة ... من الأناشيد تبنى ثم تنهــدم
تمضى الحياة بماضيها وحاضرها ... وتذهب الشمس والشطآن والقمم
وأنت أنت الخضم الرحب ، لا فرح ... يبقى على سطحك الطاغى ولا ألم

فلسفة التيجانى

عرفنا – فيما سبق – فلسفة الشابى التى تفيض بها نغمات شعره المنقبضة الحزينة ، وتترنم بها ألحان نفسه المتشائمة الحائرة . وقلنا فى معرض الموازنة بينهما إن نظرتهما للحياة كانت متقاربة ، وأن نظمهما كان متشابهاً فى المعنى والروح بفضل ما يتحد بينهما من المشاعر والإحساسات ، ثم لما يجمع بينهما من ائتلاف نفسين ، عملت فيهما مؤثرات مختلفة ، نشأت من تشابه العوامل والأحوال بين القطرين .

فهل نستخلص من ذلك كله ، أن وحدة البيئة والمؤثرات تجمع بينهما فى الفلسفة الشعرية ؟

إننا لا نبعد عن الصواب إن قلنا : إن فلسفتهما متقاربة فى روحها وغايتها ، بالرغم من وجود بعض الفروق فى الاتجاه والأفكار ، والأغراض ، التى يتناولها النظم .

فكلاهما – كما قلنا – ساخطٌ متألم، وهذا واضح فى شعرهما . وكلا الشاعرين ثائر على الأوضاع الموجودة ، والنظم القائمة من حيث النواحى السياسية ، والاجتماعية ، والأخلاقية ، وما إليها من الأحوال التى ينكران

بقاءها فى شعبيهما الطامحين المتوثبين .

غير أن التيجانى اتجه بفلسفته نحو « الصوفية الحزينة » أو « المعذبة » أو « المحرومة » بتعبير دقيق . وفى حواشى هذه الروحانية الصافية المؤمنة ، تجد لواعج شكواه ، ولواذع آلامه النفسية ، تظلل جوانبها المنيرة ، فتبدو قاتمة عكرة ، كأنها ضوء الشمس الساطع ، المحاط بنقاب من الضباب أو عارض من السحاب .

ولعلى أكون أكثر توضيحاً لما أقول ، لو عرضت عليك ألواناً من شعره هى — فى الحقيقة — صورة لنفسه المتصوفة « المحرومة » أو « الحزينة » .

تأمل قوله فى قصيدته (الصوفى المعذب) :

هذه الذرة كم تحمل فى العالم سرّا
قف لديها وامترج فى ذاتها عمقاً وغورا
وانطلق فى جوها المملوء إيماناً وبـــرّا
وتنقل بين كبرى فى الذرارىّ وصغـــرى
تر كل الكون لا يفتر تسبيحاً وذكرا

* * *

ثم مخاطبته خالق الكون قائلا :

فى تجلياتك الكبرى ، وفى مظهر ذاتك
والجلال الزاخر الفياض ، من بعض صفاتك

والحنان المشرق الوضّاح ، من فيض حياتك
قد تعبّدتك زلفى ، ذائداً عن حرماتك
فنَيت نفسى ، وأفرغت بها فى صلواتك

تتجلى — فيما تقدم لك من الأبيات — روحانيته النقية المؤمنة التى تهيم فى هذا الملكوت ، وتسبح بحمد بارئ النسمات ، ومبدع الكائنات ، فتتأمل عظمته ، وتدرك قدرته ، وتؤمن بوحدانيته ، ثم يهبط بعد ذلك إلى أغوار روحه المظلمة ، ونفسه القاتمة ، فيدفق عليه اليأس ، وتسوّد الدنيا فى عينيه ، فلا يرى إلا الظلام والشك ، وضياع النعيم واللذائذ :

ثم ماذا جد من بعـ ـد خلوصى وصفائى
أظلمت روحىَ ماعد ت أرى ما أنا رائى
أيهذا العثير الغا ثم فى صحو سمائى
للمنايا السود آما لى وللموت رجائى
قف تزود أيها الجبـ ار من زادى ومائى
واقترب إن فؤادى مثقل بالبُرَحاء

إلى أن يقول :

يا نعيماً مشرق الصفـ حة يسّاقط دونى
نضرت فى قربه نفـ سى وزايلت غضونى

ومشت غائـلة « الشـ ـك » إلى فجر « يقيني »
قضت اللـذة فاستر جعها لمح ظنوني
واسترد النعمـة الكبـ ـرى من الدهر حنيني
من ترى استأثر باللـ ـذة واستبقى جنوني ؟

ثم يسترسل فى هذا النغم الباكى المعول الحزين ، فيقول :

أذنى لا ينفـذ اليـو م بهـا غير العـويل
نظرى يقصر عن كل دقيـق وجليـل
غاب عن نفسى إشرا قك ، والفجر الجميـل
واستحال المـاء فاستحـ ـجر فى كل مسيـل
رجع اللحـن إلى أو تاره بعـد قليـل

وتلمس فلسفته « الصوفية المحرومة » فى كل نغم من أنغامه ، التى تنسجم فى مجموعها ، فتؤلف موسيقى يمتزج فيها ضحك الطرب مع بكاء الحزن :

استمع إليه يناجى نفسه ، فيقول :

نفسى تطاير كالشعـا ع وتستحيل إلى حنـين
وتذوب وَجـداً فى صبا بتهـا وتخفـت كالأنين
وترف فى وجه الحيـا ة وبين طيـات السنين

فكأنها الأمــل اللـــذيـذ مشى على القلب الحزين

ثم يصرح بمجهوده فى التنقيب عن هذا الأمل الضائع :

نفس موزعــة المشـــاعر كلها أبداً عيـــون
فى كل رابيـــة تنقـب عن سنا الأمل الـــدفين

ثم غلبت عليه الروحانية ، وتسبيح الخالق ، فعبر عن ذلك بقول رصين ونغم حزين :

وهناك فى ثبج الميـــاه وبين مسرحها الأمين
وقفـــت تتمـــتم للإلـه بما تقدس أو تديـــن
تستلهم الأدب القـــويم وتسمع الوحى الرزيـــن

وهنا سيطر عليه « الشك » فخاف أن تلعب بنفسه الظنون ، فحذرها قائلا :

الله ، أيتهـــا الوديعة أن تشط بك الظنون
الفجر ملتهـــب الجـــوانب والدجى شرس حرون
يتزاحمان إليـــك فى ولع ، وتستبق القـــرون

وتكاد تضع يدك على تعابير حرمانه فى نظمه التالى ، الذى يفرح فيه بنصيبه « السماوى » ويأسف لضياع النصيب « الأرضى » .

وفى هذا التعبير تتلاقى روحانيته الصافية المؤمنة التى تؤمل فى نعيم الله ، مع إحساسه بالحرمان الذى منى به فى هذه الحياة الدنيا :

هى نفسى من الندى قطرات   لم تنلها يد الزمان بخلط

هى فى صفحة الشباب قوى تز   خر بالحب أو تموج بسخط

هى قسطى من « السماء » فما أضـ   ـيع فى العالم « الترابى » قسطى

المشابهة فى النظم والتعبير

من الواضح أن الشعر عمل فنى ، يقوم على أشياء لا على شىء واحد . فلا بد له من الصورة الفنية ، والموسيقى الجميلة ، والخيال البارع ، والفكر الرائع .

وسنبين فى هذا البحث مناحى الشبه بين الشاعرين من حيث المبنى والمعنى ، والتصوير ، والأخيلة ، والاستعارات والتشبيهات . ولهذه الموازنة أثر بعيد ، ومغنم مفيد لأدبنا العربى المعاصر ، حيث أنها تعين على دراسة نفائس الأدب وعرائس الشعر دراسة منظمة دقيقة . وستكشف لنا عن أهم ميزات وخصائص كل من الشعراء ، الذين تقام بينهم موازنات ومشابهات . كما وأنها ترينا كيف تتصاول العقول ، وتتسابق القرائح فى التفنن من حيث الصياغة والتعبير ، عن الصورة الموحدة بين الفحول الناظمين . وقد تظهر لنا فى وضوح كيف تتوارد الخواطر ، ويقع الحافر على الحافر ، فى الموضوع الواحد ، أو المعنى المتشابه ، والغرض المشترك فى التناول والتداول .

ومعلوم أن المقصود بالمشابهة فى النظم والتصوير هو الشبه بينهما فى لغة الشعر .

فما هي لغة الشعر إذن ؟ هي أداة يستخدمها الشاعر في فنه ، قوامها الألفاظ والكلمات التي لا تخرج كثيراً عما يتحدث به الناس، ويكتبونه، ويتخاطبون به . وبهذه الأداة المألوفة يستطيع الشاعر أن يخرج صورة شعرية ، تفوق جميع الفنون : من موسيقى ، ورسم ، ونحت ، وتصوير ، وتسمو عليها سمواً كبيراً . وسنبين ذلك في حديثنا عن الصورة الشعرية .

وبما أن الشعر الصحيح ينبعث دائماً عن إحساس قوى ممتاز عما سواه من الإحساسات المألوفة . فالشاعر ملزم ــ حينئذ ــ أن يتخذ للتعبير عنه لغة خاصة متجانسة مع هذا الإحساس . فليس المعنى وحده هو الذي يؤثر في النفوس ، بل إن الألفاظ التي هي منه بمكان الجسد من الروح ، لها تأثيرها الخاص .

فكيف يكون هذا التأثير باقياً في النفوس ؟

هذا ما نحاول توضيحه على ضوء معرفتنا ميزات الشعر وخصائصه، ففي الشعر الرصين ينبغي للفظ ــ أولا ــ أن يتجانس مع المعنى ، فيكون رقيقاً في مواضع الرقة ، قوياً عنيفاً في مواضع العنف والقوة . ثانياً ــ أن يكون اللفظ على قدر المعنى . فلا يكون هناك حشو ولا زيادة تخل به ، وكذلك لا يكون هنالك قصور في الدلالة على المعنى المراد بإيجاز اللفظ واختصاره .

إذا أنعمنا النظر في أشعار هذين الشاعرين : التيجاني والشابي ،

نجد المشابهة قوية أخاذة ذات سحر وجلال ، ينفذان إلى شغاف القلوب ، ويؤثران فى طوايا النفوس .

قال الشابى يصف « الجنة الضائعة » :

كم من عهود عَذْبة فى عُدوة الوادى النضير
كانت أرَقّ من النسيم ، ومن أغاريد الطيور
وألذَّ من سحر الصِّبا فى بسمة الطفل الغرير
أيام كانت للحياة حلاوةُ الروض المطير
وطهارةُ الموج الجميل ، وسحرُ شاطئه المنير
ووداعةُ العصفور بين جداول الماء النمير

فى الأبيات المتقدمات يسكب الشاعر ذوب روحه ، وعصارة فكره ، وهو يتشوف إلى العهود العذبة التى قضاها فى الوادى النضير ، ويتحسر على ضياعها ، لأنها كانت تسمو على كل لذة من لذائذ الوجود ، وتفوق كل متاع من متع الحياة . ألم يقل « إنها أرق من النسيم ، ومن أغاريد الطيور » وألذ وأمتع للنفس من « سحر الصبا » ، « وبسمة الطفل الغرير » وهل يوجد فى الوجود شىء يعدل هاتين اللذتين فى العذوبة والطهارة ، والوداعة والجمال .

ألا تسمع إلى رنين جرس العبارات ، وحلاوة الألفاظ والتعبيرات

فى الكلمات التالية : — سحر الصبا — وبسمة الطفل — وطهارة الموج — ووداعة العصفور . إن الألفاظ فيها تجانس المعنى ، وفيها رقة تسيل على القرطاس ، وتتفجر عن أنبل عاطفة وإحساس . ثم إن اللفظ على قدر المعنى ، فلا حشو ولا زيادة مع اقتدار فيه على تأدية المعنى أداء بليغاً مؤثراً أيما تأثير .

ولنسمع إلى صاحبه التيجانى يناجى النيل فى وقفة له شاعرية سمت بروحه إلى أعلى عليين ، حيث فاضت على السامعين من نبعها الصافى ومائها النمير ، هذه الأبيات الخالدات ، المأخوذة من قصيدته « فى محراب النيل » :

أنت يا نيل ، يا سليل الفراديـ	ـس ، نبيل موفق فى مسابلك
ملء أوفاضك الجلال فمرحى	بالجلال المفيض من أنسابلك
حضنتك الأملاك فى جنة الخلـ	ـد ، ورفّت على وضىء عبابك
وأمدّت عليك أجنحة خضـ	ـراً ، وأضفت ثيابها فى رحابك

إلى أن قال ، واصفاً سير المياه :

يتوثبن فى الضفاف خفافاً	ثم يركضن فى ممرّ شعابك
عجبٌ أنت صاعداً فى مراقيـ	ـك لعمرى أو هابطاً فى انصبابك

اختار الشاعر النابغة — نضّر الله ثراه — أحسن الألفاظ وقعاً فى

النفس ، وأدعاها إلى تصوير الجمال ، وإثارة العواطف ممّا يناسب المعنى الذى تصدى لتوضيحه وبيانه . ألا تسمع إلى هذه الكلمات : ــ نبيل موفق فى مسابك ــ ثم المفيض من أنسابك ــ ثم إلى يتوثبن ــ ثم إلى كلمتى : ــ خفافاً ، ويركضن .

إنها ألفاظ تدعو إلى الفكر كلّ المعانى الجميلة ، التى تدانيه أو تمت إليه بسبب ــ فكلمة « يتوثبن » ترسم للذهن ــ فى أوضح صورة ــ منظر الماء المنساب فوق الضفاف ، حيث يغمر سطح الأرض ، ويفيض على روابيها العالية ، ثم ينحسر عنها جارياً إلى المنخفضات والوديان . وهذا يتمثل فى عبارة « يركضن فى ممر شعابك » فى قوة ووضوح .

إنك تجد هذا البيت :

عجب أنت صاعداً فى مــراقيـ ـك لعمرى أو هابطاً فى انصبابك

يجمل المعنى الذى فصّله الشاعر فى البيت السابق ، ويدعو الفكر إلى تمجيد قدرة الخالق ، الذى خلق فى الماء الرقيق قوة « الصعود » فى الهضاب والنجاد ، مع قوة « الهبوط » فى الوديان والوهاد .

إنه يدعو إلى التأمل والتفكير ، لأن له مزية أخرى فوق ما ذكرنا من مزايا وصفات ــ هى مزية الموسيقى التى توحى إلى الأذهان معنى فوق المعنى الذى تدل عليه الألفاظ.

وكيف يكون مبلغ عجبك إن تدبرت معنى البيت التالى :

وأمدت عليك أجنحة خضـ ـراً وأضفت ثيابها فى رحابك

وهو يفهم من قراءة البيت السابق له :

حضنتك الأملاك فى جنة الخلـ ـد ورفت على وضىء عبابك

هذا نيلٌ مبارك ، سليل جنة الخلد التى أنعمت عليه بالوضاءة فى العُباب ، والكساء من أفواف الزرع فوق الرحاب ، ثم السندس الأخضر على الأجناب .

وأبلغ ما فى كلمات هذه الأبيات كلمة « أجنحة خضراً » ، لأنها عبارة تدعو إلى ذهن السامع كل المعانى الجميلة التى تلابسها فيستعرض الذهن منظر الخضرة اليانعة – والظل الوارف – والطير الصادح ، وكل ما هو جميل ومؤثر فى النفوس .

وفى كلا الديوانين للشاعرين المذكورين أبياتٌ وأبياتٌ ، تشتمل على كل خصائص وميزات الشعر البليغ فى ألفاظه وكلماته . فى قصيدة « صلوات فى هيكل الحب » للشابى تجانس ، وتقارب ، وتشابه فى نواحى المعنى والمبنى ، والصياغة والتصوير ، لشعر التيجانى إلى حد كبير ، نَعرْض له فى حديثنا عن المشابهة فى « صور الحب والجمال » .

المشابهة فى الصور الشعرية

ما هى الصورة الشعرية أولا ؟

هى على حد تعبير الدكتور زكى مبارك « أثر الشاعر المفلق الذى يصف المرئيات وصفاً يجعل قارئ شعره ما يدرى — أيقرأ قصيدة مسطورة ، أم يشاهد منظراً من مناظر الوجود ، والذى يصف الوجدانيات وصفاً يخيل للقارئ أنه يناجى نفسه ويحاور ضميره ، لا أنه يقرأ قطعة مختارة لشاعر مجيد [1] »

والصورة الشعرية — فى نظرى — هى صياغة الألفاظ فى قالب النظم لإبراز صورة قلمية للشىء المشاهد أو المحسوس فى دنيا الواقع ، والشىء المتخيل فى عالم الأوهام والأحلام .

ولا تخرج الصورة الشعرية عن هذين الغرضين ، مهما تعددت أنواع الشعر ، واختلفت أغراضه وبواعثه .

وعمل الشاعر — كما هو واضح — هو صوغ الصورة الشعرية . وصياغة الشعر فن يفوق جميع الفنون : من رسم ، وموسيقى ، ونحت ،

(١) ص ٦٤ من كتاب الموازنة للدكتور زكى مبارك .

وتصوير . لأن صورة الشاعر الفنية يجتمع فيها الزمان والمكان . أما الموسيقى فتنفرد بالزمن وحده ، على حين أن الرسم يختص بالمكان فقط .

ثم إن الصورة الشعرية تفضل الموسيقى والرسم بشيء آخر . هو قدرة الشاعر على تصوير عالم الطبيعة ، والتعبير عن عالم النفس . إذ أن الشاعر الفنان يستمد بعض عناصر صورته الفنية من واقع الطبيعة ، الكائن فى الزمان والمكان ، والمتلون بشتى الألوان .

ثم يضفى على عناصر الطبيعة الجامدة فيض نفسه وذوب روحه ، فتدب فيها الحياة ، وهذا هو ما نسميه بالصورة النفسية . وهى بتعبير موجز — تصوير الشعور والتعبير عن خلجات النفس تعبيراً صادقاً .

ومهما بلغت ريشة الرسام من البراعة فى تصوير الحالة النفسية ، فلن تبلغ بحال من الأحوال ما تبلغه مخيلة الشاعر الموهوب .

الصور الشعرية فى شعر الشاعرين :

فى كل قصيدة شاعر موهوب مطبوع ، نجد صوراً فنية تفوق تلك التى تبتدعها أوتار الموسيقار أو ريشة الرسام . وإليك البيان من شعر التيجانى والشابى .

ونقتطف من قصيدة التيجانى (الخلوة) أبياتاً تصور لنا فى براعة وحسن صياغة ، حالة الصبى الصغير فى الخلوة (مكتب يعلّم فيه الفقيه

القراءة والكتابة، وحفظ سُوَرٍ من القرآن الحكيم) فانعم النظر باهتمام فى معانى أبياته وألفاظها ، يقول الشاعر :

هبّ من نومه يدغدغ عينيـ ـه مشيحاً بوجهه فى الصباح
ساخطاً يلعن السماء وما فى الـ أرض من عالم ومن أشباح
حنقت نفسه وضاقت به الحيـ لة واهتاجه بغيض الرواح
ومشى بارماً يدفع رجليـ ـه ويبكى بقلبه الملتاح

ثم يرسم لك صورة شعرية لإخوانه الصبية فى الخلوة فيقول :

ونفوس سجى الكرى فى حواشيـ ـها ، ودبّ الفتور فى الأرواح
فارجحنّت مهوّمات وما تبـ ـرح مركوزةً على الألواح
كلما لفها النُّعاس وأضفى فوقها عالماً ندىّ الجناح
قصف الرعد فى المكان ودوّى مرزماً صاخباً قوىّ الصياح
فاستفاقت وهيمنت بعض أشيـ ـاء وعادت . . وعاد قصف الرياح

هى صورة من صميم الحياة اكتملت فيها عناصر الرسام فضلا عما امتازت به من موسيقى تصويرية ، ومعان تتمثل للفكر من وحى ألفاظ ، واستدعاء معان أخر . ثم حينما نضيف إليها إحساس الشاعر الذى يبرز من خلال تعبيره ، تبعث فى نفوسنا الأسى والشجن ، وتستثير منها العطف والشفقة على هؤلاء المعذبين فى الأرض .

لقد أبرز الشاعر عمل الرسام فى وصف حالة الصبى حينما يستيقظ من نومه كسلان ، متثاقلا ، كارهاً لهذه اليقظة ، ساخطاً على حياته متبرماً بعيشه . وتلاحظ ذلك فى مشيته ، حينما يدفع برجليه دفعاً ، ويجرهما جرًّا فى الطريق ، كأنما يحملها هو ، بدلا من أن تحمله إلى « خلوته » التى يختلف إليها فى كل يوم مرات عديدة . ثم يبيّن لنا الشاعر حالة الصبى النفسية حين ذهابه فى الصباح « يبكى بقلبه الملتاح » . ثم يكمل هذه الصورة النفسية الشعورية بالموسيقى التصويرية التى توضح بنغماتها الحزينة صوت البؤس المخيم على هذه النفوس الملتاعة ، المنقبضة ، العابسة ، الساخطة على عيشها الرَذْل ، وحياتها البغيضة ، بقوله: « كلما لفها النعاس . . . إلى أن يقول . . . وعادت . . . وعاد قصف الرياح » . فهى تنام من السأم والملل ، وبيدها « ألواح » الخشب التى تكتب عليها آيات القرآن لحفظها . وأنت تراهم من بعيد ينظرون فيها ، وعيونهم مغمضة ، وأجسامهم تتأرجح يمنة ويسرة . وبينما هم على هذه الحال ، يدوى صوت الفقيه (الفكى) صاخباً ، قاصفاً كالرعد فى قوته وإزعاجه ، فينتبه الصبية مذعورين وجلين ، ويقبلون على القراءة فى ألواحهم مدةً من الزمان . فلا يلبث أن يداعب النعاس أجفانهم مرة أخرى . فتثقل ، وتترنح أجسامهم مستسلمة لسلطان الكرى لحظة أو لحظات ، قد تطول وتقصر على حسب انتباه الشيخ لحالتهم . ثم تستفيق وتصحو من غفوتها

على صوت « سيّدنا » يلعلع قويًّا ضخماً ،ساخطاً، حانقاً ، على هؤلاء المساكين التعسين .

وهكذا على التوالى يعيش هؤلاء الصبية ، فى سأم مستمر ، وملل متواصل ، وحياة رتيبة خالية من التنويع والتغيير .

الشابى :

وصور الشابى الشعرية تحوى كل العناصر اللازمة لتكوين الصورة الفنية من تعابير الرسم فى ظلاله وألوانه ، والموسيقى فى نغماتها وألحانها ، ويشوبها مع ذلك إحساس ذاته ، الذى يفصح عن نبضات قلبه ، وفيض روحه القلقة المتشائمة . إنها تمج حياة الناس ، وتود لو تفر منها إلى حياة الغاب الجميلة ، حيث الطمأنينة والأمان ، وحيث الصفاء والنقاء ، وحيث المرح والفرح ، بعيداً من أكدار الحياة ، ومتاعب العيش .

استمع إليه فى قصيدته « من أغانى الرعاة » يناجى الخراف ، ويحثها على المسير إلى جوف الوادى ، حيث تستمتع بالكلأ الممرع والمرعى الخصيب ، وهناك تمرح فى ظلال الشجر الوارفة ، وتغنى فى السهول الفيحاء ، ترجع صدى صوتها أكنان الجبال وأغوار الكهوف .

إن شاعرنا الشابى ، يسوق البهم بعذب أغاريده لتنطلق فى الفيافى والبوادى ، فتنعم بنعيم الحرية السمحة ، ومتعة الحياة الصافية الخالية من

طغيان الإنسان على الحيوان ، وعبث القوى بالضعيف :

أقبل الصبح جميلا يملأ الأفق بهاه
فتمطى الزهر ، والطير وأمواج المياه
قد أفاق العالم الحى وغنّى للحياه
فأفيقى يا خرافى وهلمى يا شياه

* * *

واتبعينى يا شياهى بين أسراب الطيور
واملأى الوادى ثغاء ومراحاً وحبور
واسمعى همس السواقى وانشقى عطر الزهور

ثم يقول : —

وامرحى ما شئت فى الوديان أو فوق التلال
واربضى فى ظلها الوارف إن خفت الكلال
وامضغى الأعشاب والأفكار فى صمت الظلال
واسمعى الريح تغنى فى شماريخ الجبال

وفى هذا التعبير صورة فنية نادرة ، استمدت وجودها من نبع الخيال العميق ، والذهن اللماح الوقاد ، والشعور الحساس المرهف . لقد أدرك الشاعر بفطرته السليمة ، وخبرته الحكيمة كيف تطيب الحياة عند شروق الشمس فى الصباح ، عندما يبسم الزهر ، ويغنى الطير ، ويمرح الحيوان .

وحينذاك ينادى شياهه للخروج لتمرح ما شاء لها المرح فى الوديان أو فوق التلال . فإن أصابها الكلال فلتسكن لحظة ، وتستقر هنيهة تتفيأ الظلال ، وهى ترعى العشب النضير صامتة صمت المفكرين أو صمت الظلال ، تسرى على وجه البسيطة لا يحس المشاهد بوجودها ، ويشعر بدبيبها الخالى من الحركة والصوت .

ثم يدعو الخراف إلى الاطمئنان من الخوف ، والاستمتاع بالعيش الهادى الآمن ، من مكر الثعالب وغدر الذئاب :

إن فى الغاب أزاهـيـ رًا وأعشـاباً عـذاب
ينشد النحـل حـواليـ ـها أهـازيجاً طـراب
لم تدنس عطـرها الطا هر أنفـاس الذئـاب
لا ، ولا طـاف بها الثعـ لب فى بعض الصحاب

ويستمر الشاعر فى تحسين حياة الحرية لخرافه التى يحدب عليها ، ويرفق بها ، ويطلب منها أن تمرح وتفرح بمباهج النعيم المقيم ، تتذوقه فى الشذى الحلو والنسيم الرخى :

وشذاً حلواً ، وسحراً وسلاماً وظـلال
ونسيماً ساحـر الخط وة ، موفور الدلال

إنك تجد فى هذه الصورة ألوان النعيم الخالد ، وظلال الحياة السعيدة . ثم ترى شاعرنا يمزج هذه الأفاويق بلذائذ الموسيقى ، التى تشدو

بها الغصون فى ميسانها وميلانها ، فيرقص حواليها النور الساطع الحى بتألقه ولمعانه .

وهذا ظفر كبير بامتداد النعيم واستمراره . وهيهات الليل — رمز الانتهاء والفناء — أن يمتد إلى الضوء فيطغى عليه ، ويبيد الحياة الأبدية فى هذا الوادى الخصيب :

وغصوناً يرقص النور حواليها والجمال
واظفراراً أبديًّا ، ليس تمحوه الليال

وأنى للخراف أن تمل وتسأم حياتها فى حمى الغاب لأن زمانه — أى حياته — حلوة كحياة الطفل ، فى عذوبتها وصفائها من الأوشاب والأدران ، والفتن والمحن . وليست هى مثل حياة الناس الكالحة الباسرة التى تراها ، فتنقبض نفسك لعبوس وجهها ، وثقل ظلها :

لن تملى يا خرافى فى حمى الغاب الظليل
فزمان الغاب طفل لاعبٌ عذب جميل
وزمان الناس شيخ عابس الوجه ثقيـــل

ويختم الشاعر صوره الرائعة البارعة ، بقول يشف عن أمنيته الحقة فى العيش فى دنيا تصفو من الرياء والنفاق ، وتطهر من الدنس والأرجاس ، وتخلو من المتاعب المؤلمة ، والمصاعب الثقيلة . ولكن هيهات أن يخلو الزهر من الشوك ، وتصفو السماء من الضباب . فالحياة مزيج من الشهد

الحلو ، والعلقم الصاب ، وخليطٌ من الضياء والظلام ، وساعات صفو وسعد يعقبها كدر ونحس :

لك فى الغابات مرعاك ومرعاى الجميل

ولى الإنشاد والعزف إلى وقت الأصيـــل

فإذا طالت ظلال الكلأ الغض الأصيل

فهلمى نرجع المسعى إلى الحى النبيـــل

أنواع الصور الشعرية

للباحث المدقق فى أنواع الصور الشعرية بين شاعرين متشابهين أن يتبين أولا أوجه الشبه فى المعانى والأغراض . ثم يوازن بين براعة كل من الشاعرين فى التصور والتصوير ، والصياغة والتعبير ، ثم فى الأخيلة والتشبيهات ، وما إلى ذلك مما يتصل بالمعنى والمبنى .

ولنا أن نعرف قبل البدء فى الموازنة أنواع الصور الشعرية التى تستحق أن تبحث وتدرس ، وتصدر فيها الأحكام ، وتقال فيها الآراء .

يقال لكل وصف شعرى طريقتان : موضوعية ، وذاتية . ففى الأولى يحاول الشاعر بالألفاظ والعبارات أن يعطينا صورة واضحة لما يراه أمامه ،

دون أن يبين لنا إحساسه ومشاعره . وفى الطريقة الذاتية يرينا الشاعر تأثير الموضوع فى نفسه ، ويتخذ من مظاهر الطبيعة المختلفة وسيلة لإخراج ما يكنه صدره من عاطفة ، أو حب ، أو ذكرى .

وفى الصور أنواع أخرى من حيث الموضوعات ، التى ينظم فيها الشعر ، ومن حيث اختلاف الأغراض والمعانى التى يتناولها الشاعر فى التصوير عن خوالج نفسه . فمنها تصوير المرئيات ، وتصوير الحوادث ، وتصوير معانى الأشياء ، وتصوير الحالات النفسية . وهى تنقسم إلى قسمين : ذاتية وغير ذاتية . ونقصد بالأخيرة منها تعبير الشاعر عن إحساسه بآلام الغير وآمالهم ، وما يشعر به نحوهم من شفقة ، وعطف ورثاء .

تصوير المرئيات والمناظر الطبيعية

يقل فى شعر هذين الشاعرين المفلقين وصف المرئيات أو بعبارة أخرى : رسم الصور لما يريانه من الأشياء . بينما يزخر شعرهما بنفثات الصدور ، وخلجات النفوس ، ومظاهر تأثرهما بالأحداث والنكبات ، واستهجانهما للتقاليد والعادات ، وتصويرهما للحقائق التى امتزج بها الخيال ، ولونتها العاطفة .

ولكل هذه الموضوعات أثر كبير فى نفسيهما الثائرتين ، حيث يشتد الألم البالغ ، ويطغى الهيجان الفوار ، ويغلى الدم الحار . فتنطلق من الشفاه همسة محزونة ، أو صرخة داوية ، أو نفثة قوية تذهب فى الناس مثلا سائراً ، وقولا مأثوراً ، أبقى على الزمن من الزمن ، وتوقظ العواطف المقابلة فى نفوس الآخرين . وهذا ما نعنى به الصور الذاتية التى ذكرناها فى معرض الحديث عن أنواع الصور ، والتى أوضحها هذان الشاعران ، وبرزت فى شعرهما بأجلى شكل وأوضح مثال .

افتتن شاعرنا التيجانى بمنظر الطبيعة الساحر ، لما رأى جزيرة « توتى »[1] تستيقظ من غلس الليل الدابر ، وتستقبل الصبح السافر

(١) هى جزيرة تقع شمال الخرطوم ، وتحدها أم درمان من جهة الغرب ، والخرطوم البحرى من جهة الشرق .

كأنها روضة مفتنة (حفها النيل واحتواها البر) فاح شذى زهورها ، وشدت على الأغصان طيورها . فطرب الشاعر وسكر بحميا منظرها الفتان ، وعبر عن هذا الإحساس العميق بلغة ، خيالها قوى ، ونغمها شجىٌّ ، ومعانيها ساحرة :

يا درة حفها النيل ، واحتواهـا الـبر
صحا الدجى ، وتغشـاك فى الأسرة فجر
وطاف حولك ركب من الكراكىّ غِرّ
كم ذا تمازج فن على يديك وسحـر
يخور ثور ، وتثغو شاة ، وتنهق حمـر
والبهم تمرح ، والزرع مونق مخضر
تجاوب اللحن ، والطحن ، والثغاء المسر
وهبّ صوت النواعير ، وهو فى الشجو مر

إلى أن يقول :

وظل قرنك يا شمس آنذاك يـذر
فكل غصن مصابيح من ندى يستـدر
وذاب فى الرمل ، أو ماج فى الترائب تبر
رملاء يـبرق در منهـا ويبهر ذر
هذا شراع مِكَرّ ، وذا شراع مِفَرّ

يطوى وينشر ، والريـــح من هناك تمر
وزورق يتهـــادى ، وزورق يستحر
يرسى ويقلــع ، والشاطىء هادئ مستقر
وفى الضفـــاف أوز ، دكن الجوانح كُثُر
ورب قنـــواء للعصم والأنـــوق مقـــر
أوفى عـــلى النيل فرع منها، وأشرف جذر
يكاد يلفظها الشط ، وهى شمطاء بـــكر
وكم تقادم عهد ، وكم تصرم دهـــر
يا أخت مصر وتفديك فى المكاره مصر
حيًّا شبابك فيض من الرخـــاء ويسر
كم فى المزارع قوم شم العرانين صعـــر
ذياك يعزق فى العشب جاهداً مـــا يقر
وذاك يعنيه حرث ، وذاك يعنيه بـــذر

أتريد أيها القارئ الكريم — بعد هذا البيان بياناً يصور فيه الشاعر العبقرى منظر الطبيعة الساحر ، ويُعطى صورة فنية كاملة العناصر ، موصولة الأواصر ، تنتقل فيها بذهنك من خاطر إلى خاطر ، حتى تستوعب كل المعانى التى تكمل بها الصورة الشعرية ، فى أبيات هى السحر الساحر.

لا أريد أن أتصدى بالشرح لأبيات شاعرنا المصور المبدع لسحر

الطبيعة فى جزيرة توتى ، فذهن القارئ اللماح يستوعب كل مجالى الحسن فيها ، غير أن هناك بعض مظاهر الحياة السودانية التى قلما توجد فى غيره ، وصفها الشاعر وصفاً قوياً رائعاً فى الأبيات التالية التى تضمنتها القصيدة السابقة :

كم ذا تماذج فن على يديك وسحر
يخور ثور ، وتثغو شاة ، وتنهق حمر
والبهم تمرح ، والزرع مونق مخضر
تجاوب اللحن والطحن والثغاء المسر

إنى أعيدها على مسامعك مرة ثانية شارحاً فى إيجاز المعنى الذى يريده الشاعر . يقول إنك إذا مررت ببعض القرى والأرياف أو الجزر المخضرة المونقة فإنك تمتع النفس بمشاهدة لوحة فنية ساحرة من مناظر الطبيعة ، تمتزج فيها فنون عديدة تراها بوضوح ، وتسمعها فى لذة وسرور . ترى على امتداد البصر بساطاً سندسياً من الزرع الأخضر الجميل ، يحف به قطيع من البهم ترعى مرحة فرحة ، وتنطلق منها أصوات موسيقية تتألف من خوار الثور ، وثغاء الشاة ونهيق الحمير . وإلى جانب ذلك تسمع صوت الطحن المنبعث من رحى تديرها فتاة من بنات المزارعين فى خدر بيتها ، وهى تغنى فى صوت ساحر النغمات ، حسن التوقيع . وكل هذه الأصوات المختلفة تمتزج وتتجاوب مع بعضها البعض ، وتؤلف

لحناً خالداً من الألحان الشجية التى تطربك وتؤنسك ، وتؤثر فى نفسك أثراً قويًّا باقياً .

لقد أبدع التيجانى أيما إبداع فى رسم صورته ، وفاق فيها المصور الماهر الذى يعمل فى دائرته الضيقة ، حينما يرسم على لوحته حالة من حالات النفس ، أو صورة من صور الحس . على حين أن دائرة التيجانى أرحب وأوسع ، لأنه يستكمل تصوير منظره فى أبيات متعددة ، إن عجز عن التعبير فى بيت أو بيتين .

ولنستمع الآن إلى قصيدة مشابهة من قصائد الشابى التى يصور فيها صورة واضحة لما يحس من أشعة الوجود ، وألوان الطبيعة، وعِبر الحياة . يقول الشابى مخاطباً الحياة التى يريدها لشعبه فى قصيدته « إرادة الحياة » :

وقال لىَ الغاب فى رقة	محجبة مثل خفق الوتـــر
يجل الشتاء ، شتاء الضباب	شتاء الثلوج ، شتاء المطر
فينطفئ السحر ، سحر الغصون	وسحر الثمار ، وسحر الزهر
وسحر السماء القوى البديع	وسحر المروج الشذىّ العطر
وتهوى الغصـــون وأوراقها	وأزهارها عن جمال نضر
وتلهو بها الريح فى كل واد	ويدفنها السيل أنى عـــبر
ويفنى الجميع كحلم بديع	تألق فى مهجة واندثـــر

وذكرى فصول ، ورؤيا غيوم   وأشباح دنيا تلاشت زمر
معانقة ، وهي تحت الثلوج   وتحت الضباب وتحت المطر
كطيف الحياة الذى لايمل   وقلب الربيع الجميل العطر
ويمشي زمان ، فتنمو صروف   وتذوى صروف وتحيا أخر

إلى أن يقول :

تسائل أين ضباب الصباح   وسحر المساء ، وضوء القمر
وأسراب ذلك الفراش الجميل   ونحل يغنى ، وغيم يمر
ظمئنا إلى النور فوق الغصون   ظمئت إلى الظل تحت الشجر
ظمئت إلى النبع بين المروج   يغنى ويرقص فوق الزهر
ظمئت إلى نغمات النسيم   وعزف الرياح ، ولحن المطر
ظمئت إلى السكون أين الوجود   وأين أرى العالم المنتظر

ينقلك الشاعر الساحر إلى جو عبق زاهر ، فيه تحب الحياة ، ويحلو المتاع ، ويطيب السمر . وقد تسأل كيف يكون ذلك ، وهو يصف ذبولها ونحولها ؟ إن الشاعر يعطيك صور الحياة الممتعة بعرض صورها القاتمة المظلمة ، وبضدّها تتميز الأشياء . ويصور لك ما يغشاها من ظلام الشتاء ، وانطفاء السحر والرواء ، حينما تذوى الثمار وتذبل الأزهار ، ويغيب النّوار ، وتسقط أوراق الأشجار ، التى تلعب بها الزعزع

النكباء فى زمهرير الشتاء ، ويدفنها السيل الدافق فى أغوار المهاد والوهاد .

هذه صورة جميلة عبر بها الشاعر عن مشاعر قوية ، وإحساس عميق ، رسمها باستخدام ألفاظ منتقاة ، مرتبة فى أعذب ألحان ، وأجمل موسيقى ، وأقوى أشجان .

لقد وضحنا ما فى القصيدتين من أغراض ، وبيّنا مواطن الحسن والجمال فى كل منهما ، من حيث روعة الخيال ، والبراعة فى تناول المعانى الدقيقة العميقة ، التى تكل عن تصويرها سواعد الفحول الكبار .

تصوير الأحداث الوطنية

ولننتقل بعد هذا إلى توضيح غير ذلك من الصور النفسية التى برع فى استكناه أسرارها ، واستجلاء غوامضها كل من الشاعرين الشابين .

إنهما قد اشتركا فى البواعث التى تستفز الإنسان إلى النطق بشعر متفق فى المعنى والغرض لما بينهما من التشابه فى كثير من نواحى الحياة كما قدّمنا . فكلاهما عاش حياة مليئةً بالأهوال ، زاخرة بالكفاح والنضال . وبرم كل منهما بما يجرى بين أهله وقومه ، مستهجناً حياة شعب ، يعانى متاعب الاستعباد ، وآلام الاستبداد ، وأهوال الجهاد . وقد سكب كل منهما ذوب روحه الوثابة ، وعصارة ذهنه الجبار ، وفيض وجدانه الدافق فى تصوير أحوال شعبه ، وتجسيم آلامه حفزاً للشعور ، واستفزازاً للنفوس المكلومة لتصحو من غفوتها ، وتهب من رقدتها ، فتنهض وتركض حتى تلحق بركب الأمم المسرع العجلان ، الذى لا يعين العاجز المهمل ، ولا ينتظر المتخلف الكسول . إنهما أجادا وأفادا ، كأحسن ما يطلب ذلك من شاعرين عظيمين أدى كل منهما رسالته فى البلاغ والبيان أداء كاملا ، واضحاً فى مبناه ، قوياً فى معناه ، مؤثراً بألفاظه ، وألحانه ، وموسيقاه .

قال الشابي مخاطباً شعبه فى قصيدته (النبي المجهول) :

ليت لى قوة العواصف — ياشعـ ـبي — فألقى إليك ثورة نفسى
ليت لى قوة الأعاصير ، لكن أنت حىٌّ يقضى الحياة برمس
أنت روح غبية ، تكره النـ ـور وتقضى الدهور فى ليلٍ غلس
أنت لا تدرك الحقائق إن طا فت حواليك دون مسٍّ وجس

إلى أن قال :

فى صباح الحياة ضمخت أكوا بى وأترعتها بخمرة نفسى
ثم قدمتها إليك فأهرقـ ـت رحيقى ، ودست يا شعب كأسى
فتألمت ، ثم أسكتّ آلا مى وكفكفت من شعورى وحسى
ثم نضّدْتُ من أزاهير قلـ ـبى باقة لم يمسها أى إنس
ثم قدمتها إليك ، فمزقـ ـت ورودى ، ودستها أى دوس
ثم ألبستنى من الحزن ثوباً وبشوك الصخور توجت رأسى

ثم قال لما يئس من الإصلاح ، وبرم بالحياة ، حينما ذهبت صيحته أدراج الرياح ، ولم يسمع قومه الأنين والنواح :

هأنا ذاهب إلى الغاب — يا شعـ ـبي — لأقضى الحياة وحدى بيأس
هأنا ذاهب إلى الغاب علّى فى صميم الغابات أدفن نفسى
ثم أنساك ما استطعت فما أنـ ـت بأهل لخمرتى ولكأسى

ولكن هيهات أن ينساه ، وهو قد ترعرع فوق أرضه ، ونشأ تحت

سماه . إنه يحث بنى وطنه للنهوض ، ويحفزهم إلى العمل السريع ، بعد سكب روح الأمل البديع فى نفوسهم ، وذلك يتضح فى خطابه الطير الذى يدرى معنى الحياة ، ويعرف أن طيب عيشها لا يتاح لمن سُلبت حريته ، ومات حسه وبلد شعوره ، وانطفأت جذوة آماله ، وغاض معين أحلامه :

سوف أتلو على الطيور أناشيـ ـدى وأفضى لها بأحزان نفسى
فهى تدرى معنى الحياة وتدرى أن مجد النفوس يقظة حس

ويتبين لك — عند إنعام النظر — أنه لم ييأس من الإصلاح بل كان يستبعد زمنه ، لأن شعبه لم يبلغ سن النضج ، ولم يقف على سوقه ينافح ويكافح ، ليرد حريته المسلوبة فيحظى بكمال استقلاله ، ويرغم غيره من الأمم على احترامه وإجلاله . وفيما يلى من القول يؤنب قومه ، عندما استخفوا بقوله ، وأشاحوا معرضين عن سماع صوته ، ورموه بالسحر والجنون :

أيها الشعب أنت طفلٌ صغيرٌ لاعبٌ بالتراب ، والليل مغس
أنت فى الكون قوة لم تسسها فكرة عبقرية ذات بأس
أنت فى الكون قوة كبلتها ظلمات العصور من أمس أمس
والشقى الشقى من كان مثلى فى حساسيتى ورقة نفسى
هكذا قال شاعر ناول الشعـ ـب رحيق الحياة فى خير كأس

فأشاحوا عنها ومروا غضاباً واستخفوا به وقالوا بيأس
« قد أضاع الحياة فى ملعب الجن فيابؤسه ، أصيب بمس »
« طالما خاطب العواصف فى الليل وناجى الأموات فى كل رمس »
« طالما رافق الظلام إلى الغاب ونادى الأرواح من كل جنس »
« طالما حدّث الشياطين فى الوادى وغنى مع الرياح بجرس »
« إنه ساحر تعلمه السحر الشياطين كل مطلع شمس »

ويشبه التيجانى الشابى فى رقة الإحساس ودقة المشاعر ، فهو نفس مرهفة مضطربة ، وقلب خفاق بلواعج الحب لوطنه ، والإخلاص لقومه ، يثور لأحزانه ، ويتألم لآلامه وأشجانه . وقلب التيجانى هو قلب الشاعر الصادق ، الذى يعد بمثابة أداة تصوير واعية تلتقط ما يتساقط عليها من ألوان الحوادث ، ومشاكل الوجود ، ومسرات الحياة وحسرتها . لقد عبرت نفس التيجانى الثائرة عما يجيش فى قرارتها بهذه الأبيات الشاكية الصارخة فى قصيدة عنوانها « ثورة » فقال :

من لهذا الأنام يحميه عنى قلمى صارمى ، وطرسى مجنى
هو فنى إذا اكتهلت ومازال على ريّق الحداثة فنى
نهلت من دمى الحوادث واستروى يراعى مما يدفع دنى

إلى أن يقول :

ويل هذا الأنام من قلبى الباكى وويحى مما يجر التجنى

إنهـــا ثورة الحيـــاة ، فمن للـ   كون يحميه من قذائف رعـــن
إنها ثورة الشبـــاب يُبْسا   مراعيه ، وما كالصبا أقر لعينى

ثم يذكر عهود الصبا والطفولة ، وما تغرس فى النفس من حب دفين للأوطان :

وطنى فى الصبا الدمى والتماثيـ   ـل ونفسى ومن أحب وخـــلنى
هـــذه يا أبى تصاوير ما تبـ   ـرح دنياى ، أو تزايل كـــونى
يصنع الغاب مزهرى ، ويشيد الر   مل عرشى ، ويبعث اللهو أمنى
تلك عرسى ، وإنها صنع نفسى   بيدى صغتها ، وذياك أبنى
هى دنيا الصبىّ ، لا جنة الشيـ   ـخ ، تفيض النعيم من كل لون

ثم يخاطب وطنه متحسراً على ضياع نصيبه من نعيمه الذى يستمتع به الأجانب ، على حين أن بنى وطنه يعيشون أذلاء أرقاء فقراء ، يستعبدهم الغير ، ويضنون عليهم بما يشفى غلتهم ، ويروى ظمأهم ، فيقول :

قف بنا نملأ البلاد حماســاً   ونقوّض من ركنهـــا المرجحن
هى للنازحين مـــورد جـــود   وهى للآهلين مبعـــث ضـــن
يستدر الأجانب الخـــير منهـــا   والثراء العريض فى غـــير مَنّ
أبطرتهـــم بلادنـــا فتعـــالى ابـ   ـن « أثينا » واستكبر « الأرمنّى »

ثم يختمها بهذه الأبيات الروائع التى تدل على صدق الوطنية ، وقوة الشعور بالكرامة القومية :

حسب قلبي من الأسى ما ألاقى ملء جنبيّ من كلال وأيـــن

وبحسبي من حاجة عــوز يد فع نفسى إلى فــراق وَبــين

يا بلادى أخلصتك الخير واستصـ فيت ودى إليك من كل مَيْنِ

ماذا ترى — بالله عليك — فى هذا الشعر الرصين المتين ، والنفثة القوية المنبعثة من فؤاد مجروح ، وصدر معذب بالحرقة والأنين . يتألم الشاعر ويرسل صوته داوياً كالريح ، مجلجلا كالرعد ، نافذاً كالسهم فى قلوب المواطنين ، ونفوس الشباب العاملين ؟ .

صور الحب والجمال

ليس فى الوجود إنسان دقيق المشاعر ، مرهف الإحساس ، لا يخفق قلبه للحب العذرى الطاهر ، ولا يفتتن بمنظر الجمال الساحر الجذاب ، ويعلق بالحسن فى جميع مظاهره المادية والمعنوية .

وما دامت النفس البشرية تشعر بهذه العاطفة الجامحة القوية فإنها تجد فى الشعر خير معبر ناطق لما يلابسها من متباين الحسن ومختلف الشعور ، وأصدق محدث ينطق بما توحى به بيئة كل شاعر ومحيطه الذى نشأ فيه ، وبما يؤثر عليه فى حياته من متنوع الحوادث ومتعدد الخطوب .

لقد خفق قلب الشابى بالحب العذرى الطاهر . وهو وحده كان له أكبر عزاء ، وأعظم عوض ، لكل ما فقده فى حياته المليئة بالآلام والسقام .

كان الشابى يرى فى الحب مشتهى نفسه ، وأمنية فؤاده . ولولا هذا الحب العذرى لما خفق قلبه بالحياة التى كرهها وسئمها . فكل ما فيها قاتم مظلم الجوانب ، مسوّد الصفحات ، ولا ينيره سوى ضوء الحب الذى يسطع ويغمر حنايا نفسه الحالكة ، فينعشها ويحبب إليها الحياة .

ولم يكن الشابى رحمه الله ميالا للمجد أو للجاه الذى ينشده غيره من

محبي الظهور والرياء ، ولم يكن راغباً فى الثراء العريض والعيش الهنيء ، لأنه كان يقنع بما قسم الإله للناس من مجد وحظوظ وأرزاق . بل كان يصبو ويتوق إلى مجد يختلف عن مجد الناس . يجده ويحس به فى هذا الحب ، الذى كان يملأ قلبه بهاء ونقاء ورواء . وكان يتمثل له هذا الحب العلوى الصافى فى ضوء الفجر ، وفى شدو الطير ، وفى رفيف الزهر ، فيملأ نفسه سروراً لا يعدله سرور .

أصغ إليه بأذنيك ، واسمعه يقول مناجياً الحياة التى يشير إليها بأمس :

لست يا أمسيَ أبكيك لمجد أو لجاه
لا ، ولا أبكيك يا أمسى إذا ما قلت : آه
لنعيم لم ينل قلبيَ منه مشتهاه
فبنو الأيام فى الدنيا كما شاء الإله

* * *

إنما أبكيك للحب الذى كان بهاه
يملك الدنيا ، فأنى سرت فى الدنيا أراه
فإذا ما لاح فجر ، كان فى الفجر سناه
وإذا غرّد طير ، كان فى الشدو صداه
وإذا ما رفّ زهر ، كان فى الزهر شذاه

فهو في السكون جمال ، يملك الأفق ضياه
وتُوشّى هذه الأكوان بالسحر رؤاه
وهو في قلبي الذى عانقه الفجر إلَه

وإني أظن ظنًّا يقرب من اليقين ، أن الشابي لم يكن يحب حبًّا ماديًّا يبغي به قضاء وطر أو وصال حبيب ، بل كان قلبه يخفق بحب روحي علوي ، يتمثل له في مشاهد الطبيعة الساحرة وفي مناظرها البهيجة ، وكان حبه معنيًّا بالقيم الروحية : من جمال ، وفن ، وخير ، وما إلى ذلك من هذه الروحانيات التي يعشقها كل متوفز في حسه ، مرهف في شعوره ، نبيل في نفسه وخلقه .

ونكاد نلمس هذا النوع من الحب في بعض أشعاره التي تفيض بلواعج نفسه ، ومطالب حسه ، وأماني قلبه العظيم المتيّم بالمثل العليا .

فهو يقول في قصيدته « صلوات في هيكل الحب » هذه الأبيات التي تنطق شاهدةً على صحة ما نزعم أو نظن من قراءة شعره :

عذبة أنت كالطفولة ، كالأحـ لام ، كاللحن في الصباح الجديد
كالسماء الضحوك ، كالليلة القمر اء ، كالورد ، كابتسام الوليد

وبعد أن يصف ما فيها من طهارة ووداعة ، ورقة وجمال ، يقول مخاطباً المحبوب :

أنت ما أنت؟ أنت فجر من السحـ ر ، تجلّى لقلبي المعمود

فأراه الحياة في مونق الحسـ ـن وجلى له خفايا الوجـــود

ولعلّه وجد في هذا الحبيب ما يملأ قلبه سروراً ، تنتشي به روحه الظمأى إلى مباهج النعيم السماوي الرفيع ، وتحيا به نفسه التي أفنتها الأحزان والأشجان ، فقال :

كلما أبصرتك عيناى تمشـ ـين بخطو موقع كالنشيـــد
خفق القلب للحياة ، ورفّ الز هر في حقل عمريَ المجرود
وانتشت روحيَ الكئيبة بالحب وغنت كالبلبل الغرّيد
أنت تحيين في فؤادي ما قد مات في أمسيَ السعيد الفقيد
وتشيدين في خرائب روحي ما تلاشى في عهديَ المجدود
من طموح إلى الجمال ، إلى الفن إلى ذلك الفضاء البعيد

ثم يعظم حبه الروحي ، ويرفعه إلى مقام يسمو على الخيال والشعر والفن بقوله :

أنت أنت الحياة في قدسها السا مى وفي سحرها الشجي الفريد
أنت فوق الخيال ، والشعر ، والفن وفوق النهى ، وفوق الحدود
أنت قدسي ، ومعبدي ، وصباحي وربيعي ، ونشوتي ، وخلودي

ويَطْغى به هذا الحب إلى الحد الذي ينكر فيه على غيره الإحساس بروعة هذا الحب الرفيع والنشوة بما فيه من لذة ومتعة :

يا ابنة النور إنني أنا وحدي من رأى فيك روعة المعبـــود

فدعيني أعيش في ظلك العذ ب وفي قرب حسنك المشهود
عيشة الجمال ، والفن ، والإلها م ، والطهر ، والسنا ، والسجود
عيشة الناسك البتول، يناجي الـ رب في نشوة الذهول الشديد

وقد يصل به الفناء في حبه ، والإخلاص في عشقه ، والتقدير والوفاء لمحبوبه إلى درجة بعيدة في الاستغراق والاندماج ، يؤدي به إلى الأنانية حدباً على محبوبه ، وصيانةً له مما يلحقه من غدر الناس ولؤم نفوسهم ، وفسولة طباعهم ، وخبث سرائرهم . فهو ينصح محبوبه بالبعد عنهم ، والعيش في عزلة منهم ، لأن حياة الناس مفسدة ، يحيط بها الإثم والفجور . وفي العزلة منجاة من الفساد ، وقرب من الطهارة والصفاء والهناء . ثم يضن بهذا الحبيب الطاهر الذيل ، النقي السيرة ، أن يكون معهم، لئلا يتلوث بشرورهم وآثامهم . وشاعرنا الشابي من أقدر الشعراء صياغة لما يحس به من شعور ، وما يعتنقه من أفكار ، وما يعتقده من مبادئ . ولعله أكثر وضوحاً وأسمى تعبيراً في نظمه هذه الأبيات من قصيدة عنوانها « أيتها الحالمة بين العواطف » :

أنت كالزهرة الجميلة في الغا ب ولكن ما بين شوك ودود
فافهمي الناس، إنما الناس خلق مفسد في الوجود غير رشيد
والسعيد السعيد من عاش كالليـ ل غريباً في أهل هذا الوجود

* * *

ودعيهم يحيون في ظلمة الإثـــــم وعيشي في طهرك المحمــود
كالملاك البرىء ، كالوردة البيـ ضاء ، كالموج في الخضم البعيد
كأغاني الطيور ، كالشفق السا حر ، كالكوكب البعيد السعيد

إلى أن قال :

أنت تحت السماء روح جميل صاغه الله من عبير الورود
وبنو الأرض كالقرود وما أضـ يع الورود بين القــرود

لقد أودع الشابي في الأبيات المتقدمة فنه ، وروحه وفكره ، فهو حسنٌ في الصياغة والتخييل ، وبارعٌ في التشبيه والتمثيل ، ومن أكثر الشعراء وقوعاً على المعنى الطريف ، والفكرة العميقة ، ثم هو إلى ذلك صادق في حبه ، مخلص في نجواه ، طاهر الذيل عف الضمير ، رقيق الإحساس ، نبيل الخلال والصفات .

والتيجاني خير شبيه لصاحبه الشابي في حبه العذري الطاهر . فهو يعشق الجمال ، ويهيم بالمثل العليا من الفضائل الإنسانية . وحبه للخير والفن أقوى دليل على هذا الاتجاه النبيل .

غير أن التيجاني ينشد من الجمال ذلك الذي صوره مبدع المخلوقات في بني الإنسان ، على خلاف صاحبه الذي ينقب عنه في مجالي الطبيعة ومشاهد الوجود . وكلا الشاعرين يبحث عن مثله العليا في صورها المختلفة ، لأن الجمال شيء معنوي يتخذ أشكالا متباينة في مظهره المادي .

وللتيجانى مقدرة بارعة فى الإبداع فى شعر الحب والجمال ، من حيث روعة المعنى ودقة المبنى ، ومن حيث تصوير دخائل نفسه فى صورة واضحة كاشفة لما ينطوى عليه ضميره ، وما يتفجر به قلبه من الروحانية الصافية والأيمان العميق .

وفى نشدانه للجمال يتجه إلى ما يفيض على نفسه صفاء ونقاء ورواء ويجد ذلك فى صفاء العيون ، التى تدفق ألواناً من صور الجمال ، يرشف منها الشاعر ، وينتشى نشوة باقية متواصلة . وفى العيون مشرع لن يغيض ، ومنبع لن يبض بقطرة من خمرة النعيم الإلهى ، ونعمة الخلد الأبدى . استمع إليه يقول فى مناجاتها فى قصيدته « نعيم الحب » :

كم وردنا من سحر عينيك مشرع — وأصبنا مرعى لديك ومرتع
مشرع لن يغيض كالأبد الزا — خر يجرى إلى مدًى منه أوسع
ونعمنا بزاخر منك ثرًّا — ر مفيض على القلوب لتكرع
الجمال الذى استقاد به الله — ه وجوهاً صعب المقادة أروع
أيهذا الحبيب كم عندنا منـ — ك نعيم مما تجود وتمنع
إن لى من وراء عينيك هاتـ — ين مصلى ، وفيهما لى مخدع
فيهما لوعة القلوب ونعما — ها ، وكم فيهما حديث مُوقَّع
كم يجنىّ من مفاتن ما تخـ — فضُ عيناك من جلال وترفع

إلى أن يقول :

أيهذا الحبيب ما بىَ إلا … أن دنياك من نعيمىَ بلقع
أنا أشقى بالحب من حيث ما ينـ … ـعم قلب ، وكم ألـذ وأمتـع
والهوى نعمة الزمان ، ونعمى الـ … ـخلد أسمى من الحيـاة وأرفع

وإليك قصيدة من قصائده ، تمثل أصدق تمثيل فنّه الرائع ، وفكره البارع ، وخياله العميق ، وتعبيره الدقيق . اسمعه يقول ، وهو المحب الواله المفتون :

وعبدناك يا جمـال وصُغْنـا … لك أنفاسنـا هُيامـاً وحبًّا
ووهبنـا لك الحيـاة وفجّر … نا ينابيعها لعينيـك قـربى
وسَمَونا بكل ما فيـك من ضعـ … ـف جميـل حتّى استفاض وأربى
وحبوناك ما يزيدك – بالغـز – … وضوحاً ، وأنت تفتأ صعبـا

ثم تأمل فى قوله الرائع ونظمه العجيب :

من ترى وزع المفاتن يا حسـ … ـن ، ومن ذا أوحى لنا أن نُحبّا
من ترى علّم القلوب هوى الحسـ … ـن ، وقال اعبدى من الحسن ربًّا
من ترى ألهم الجمال ، وقد أعـ … ـطاه من جَبرة الحوادث عضبا
أن يبث الهوى مفاتن فى جفـ … ـن بليغ ، وأن يجود ويـأبى
من ترى وثق العرى بين مسحو … رين : أسماهمـا جمالا وقلبـا
إنه صانع القلوب التى تنـ … ـصب فى قالب المحاسن صبـًا

وصاحبنا التيجانى يعبد الحسن فى صوره المختلفة ، فى أجناسه المتعددة ، ولن يحول بينه وبين عبادته معتقد أو دين ، أو اختلاف فى الأوطان والألوان . وهذا هو الحب الرفيع البديع الذى يتخطى الحواجز ، ويعبر الفوارق ، ويتغلب على الماديات والمواضعات والمعتقدات . لأنه شيء روحانى ، لا يقصد به قضاء لذة أو إشباع رغبة وقتية عاجلة ، بل يقصد به عبادة الحسن وتمجيد الجمال فى أى شكل من الأشكال ، وفى أى جنس من الأجناس .

ولعل لبيئة شاعرنا أثراً كبيراً فى نفسه ، لأنه نشأ فى حى المسالمة ، وهو حى جماعة من المسيحيين المستوطنين فى أم درمان وسمُّوا بذلك لأنهم أرغموا على اعتناق الإسلام فى زمن المهدية . ثم عند الفتح الأخير للسودان استمر جماعة منهم على دين الإسلام وتنصر فريق منهم وبقى فى ذلك الحى :

رأى شاعرنا — ذات مرة — مسيحية حسناء ، فافتتن بحسنها وراقه منظر العيون . وكما قلنا — اتجه الشاعر إلى اجتلاء محاسن العيون ،لأنها مستقى روحه التى تنتشى بخمرة العيون ، وتسكر من رحيقها المعصور من صفائها ونقائها ، فأنشأ يقول :

لا تثأرى من فؤادى ‏ كفى بدمعى ثارا

حسبى افتتاناً تجنيـ ‏ ـك نفرة وازورارا

آمنت بالحسن برداً ... وبالصبابة نارا
وبالكنيسة عقداً ... منضّداً من عذارى
وبالمسيح ومن طا ... ف حوله واستجارا
إيمان من يعبد الحسـ ... ن في « عيون » النصارى

صور العاطفة والوجدان

لقد اتضح لنا – فيما تقدم – أن هذين الشاعرين يشتركان فى جَرْس الكلمات ، ونغم العبارات ، وموسيقى السياق . ولهما مقدرة قادرة فى إبراز الصور التى تتملاها العين والأذن ، والحس والخيال ، والفكر والوجدان .

وبقى علينا أن نعرض لهما صوراً من شعر الآلام والأحزان ، لأنه خير ما ينبعث من الحس والوجدان ، فى صدقه وتأثيره على نفوس السامعين . ولقد أحسن قدماؤنا حين قالوا : « الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت فى القلب ، وإذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان » .

للتيجانى قطعة من نفسه ، وصورة من حسه ، فاض بها قلمه السيال مصوراً « لوعة الغريب » الذى فارق وطنه وأهله ، وترك أنفساً معذبة ، وقلوباً موجعة ، لا تصبر على فراق ، ولا تفتأ تذكره وتحن إلى لقائه . وأكثر هذه النفوس المفتونة بحبه وادكاره هما : نفس الوالدة المحبة الوالهة ، والأخت الوجلة الذاهلة . استمع إليه يقول ، معبراً عن وجد الأم المدنف وآلامها الحارة ، تنبجس من كبدها الحرَّى ، وتتفجر من حنانها الدافق وعطفها الرقيق :

هذه أمه يفيض بها القيثار فاسمع حنينه وانكساره
هي في قدسه استقرت ، فلما غلب الشوق مزقت أوتاره
أطلق الوجد من يديها كناريّ هوى ، واستفز منها هزاره
هبطت دمعة هناك وماجت نغماً مبهماً ، وفاضت إشارة
صورتها أنغامه ، فهي ما تبرح في موجة الأسى ديّارة
ملء آهاتها الهوى ، والحنان الجم ، والعطف ، والرضا والحرارة

ثم يصور حنين أخته ، فيجيد التصوير ، ويبرع في التعبير عن حر أنفاسها ونيران أشواقها :

وذه أخته أجل تملأ الدنيا حنيناً وترحم القيثارة
نسلت في الأنين يحدرها الدمع ، ويطفو بها فتذكي أواره
تمسح الحزن من مآقي أخيها بيد حركت بها أوتاره
أرسلت شدوها مع الليل فاندس إليه فهزه فاستثاره
هي في قدسه استقرت فلما غلب الشوق مزقت أستاره

تُرى ماذا يقول الشاعر بعد أن رسم صورتين واضحتين لمحبين مدنفين ، مزّقهما الحب ، وأذابهما الحنين إلى مقر الحبيب . وفي تعبير آخر نقل إليهما خيال المحبوب الذي عذّبهما بتصوره وتذكره ، على حساب العيون السواكب ، والأفئدة الذوائب .

لم يقف عند هذا فحسب ، بل أراد أن يزيد الفاجعة ، ويضاعف

لعذاب ، بتصوير حال الغريب ، عن الأهل والوطن والحبيب ، فيقول :

يا غريباً عن ربعه قم تلمس ... بين قيثارة الهوى آثاره
وتعقب معاهد المسرح الطيّـ ... ـب واقطف من الهوى أزهاره
ها هنا حيث يشرق الأمل الغض ... وتمشى على الزمان الغضارة
أعجم الصادح المرنّ ، وأغنى ... ليله حالماً ، وأغضى نهاره
وتراخى ، وهوّم اللحن حتى ... شهد الفن يوم ذاك احتضاره
وتر نائم ، وآخر وسنا ... ن ، وكف موتورة خوارة
مالها عطلت فصارت نشازاً ... بعد ما ألهبت على الشعر ناره
ذكر القلب سهده فتردّى ... عاثراً فى الضلوع يشكو إساره
وهو يشكو من الزمان تجنيـ ... ـه ويشكو من الحبيب ازوراره

إلى أن يقول :

ويح هذا الغريب كم ذاب تحنا ... ناً وكم صاغ من دموع دياره
يخلص الوجد من دم كله نبـ ... ـل ويضنى على البعاد ادكاره
ما كفى البين أن يشت بأهليـ ... ـه فأقصى حبيبه ومزاره
ويحه أوشك الزمان وأشفى ... أن يعرى عن نضرة آذاره

وإننا نقرأ للشابى عيوناً من شعر الوجدان ، وذوب القلب الخافق الهيمان . إنه قلب الأم المضنى الكسير على فقد حبيبها الطفل الصغير .

فاستمع إليها ترثيه وتناجيه فى عبارات محزنة وكلمات مبكية معولة ، وألفاظ رحيمة رقيقة :

يأيهـــا الطفل الذى قد كان فى هذا الوجود
حلماً يناجى هاته الـــــدنيا بمعســول النشيد
هأنت ذا قــد أطبقت جفنيـــك أحلام المنون
وتطايرت زمر المـــلا ئك حول مضجعك الأمين
هأنت ذا قــد جللتـ ـك سكينة الأبد الكبير
وبكتك هاتيك القلـــو ب ، وضمك القبر الصغير

إلى أن يقول :

كل نســوك ، ولم يعو دوا يذكرونك فى الحياة
والدهر يدفن فى ظلا م الموت حتى الذكريات
إلا فؤاداً ظـــل يخـ ـفق فى الوجود إلى لقاك
ويود لو بذل الحيـــا ة إلى المنيـــة وافتـــداك

* * *

فإذا رأى طفلا بكاك وإن رأى شبحاً دعاك
يُصغى لصوتك فى الوجود ولا يرى إلا بهـــاك

* * *

يصغى لنغمتــك الجميـ لة فى خرير الســاقية
فى أنَّةِ المزمــار ، فى لغو الطيــور الشــادية
فى ضجــة البحر المجلـ جل ، فى هدير العاصفة
فى بجنــة الغابات ، فى صوت الرعود القاصفــة

* * *

ويراك فى صور الطبيـ عة حلوها ، ودميمها
وأليفها ، ومخيفها وحقيرها ، وعظيمهــا

* * *

أعرفت هذا القلب فى ظلماء هاتيك اللحود
هو قلب أمك أمك الســكرى بأحزان الوجود

* * *

تصوير الحالات النفسية

إذا عرفنا فى مكنة الشاعر العبقرى أن ينطق الشخوص عن نفثات صدورهم ، وصيحات قلوبهم ، وحسرات نفوسهم ، فى تعبير قوى ، ونغم سحرى ، ومعنى علوى ، ينتقل به التأثير إلى نفوس السامعين ، فتتحرك عواطف القارئين بوحى الصورة المحسة فى الوصف الشعرى ، فإن فى استطاعته من غير ما مشقة أو نصب ، أن يصوّر خلجات نفسه ، ونبضات قلبه ، وإحساس روحه ، صوراً شعرية ، هى فيض العاطفة المنفعلة ، ووحى الوجدان الصادق ، الذى عرف حقائق الوجود فى نفسه معرفة الواقع الملموس ، لا المتخيل المحسوس .

للشابى قصائد كثيرة ، يصوّر فيها مطالب حسه ، وشجون نفسه ، تصويراً عذباً صادقاً ، تُحسّ فيه حرارة الإيمان ، وصدق العواطف الباكية الناحبة .

اقرأ هذه الأبيات فى قصيدته « فى ظل وادى الموت » :

نحن نمشى وحولنا هاته الأكـ وان تمشى ، ولكن لأية غايـة

نحن نشدو مع العصافير للشمـ س ، وهذا الربيع ينفخ نايه

نحن نتلو آية السكون للمو ت ، ولكن ماذا ختام الرواية ؟

ثم يقول فى أبيات أخرى :

قد رتعنا الحياة طويلا   وشدونا مع الشباب سنينا
وعدونا مع الليالى حفاة   فى شعاب الزمان حتى دمينا
وأكلنا التراب حتى مللنــا   وشربنا الدموع حتى روينا
ونثرنا الأحلام،والحب والآ   لام ، والحزن، يسرة ويمينا

وفى قصيدة أخرى عنوانها « الأبد الصغير » يقول :

يا قلب إنك كون مدهش عجب   إن تسأل الناس عن آفاقه وجموا
كأنك الأبد المجهول قد عجزت   عنك النهى ،واكفهرت حولك الظلم

* * *

يا قلب كم من مسرات وأخيلة   ولذة يتحــامى ظلهــا الألم
غنت لفجرك صوتاً حالماً مرحاً   نشوان ، ثم توارت وانقضى النغم

ثم يعدد الشاعر ما انتابه من آلام وأحزان ، عقبت ما كان فيه من مسرات ولذائذ ، فيقول :

فكم رأى ليلك الأشباح هائمة   مذعورة تتهاوى حولها الرجــم
ورفرف الألم الدامى بأجنحــة   من اللهيب وأن الحزن والندم
تمضى الحياة بماضيها وحاضرها   وتذهب الشمس والشطآن والقمم
وأنت أنت الخضم الرحب لا فرح   يبقى على سطحك الطاغى ولا ألم

ثم يصور أحلامه التى نسجها فتلاشت ، وأكاليل فخاره وزينته التى

أفنتها العواصف ، وأمانيه الناضرة بمباهج الفردوس ومتع الجنان ، حيث اختفت وزالت . كل ذلك يعطيك فكرة عن نفسه التى برمت بالحياة ، لزوال ما فيها من نعيم ، وبقاء ما فيها من جحيم . ثم تستروح بعد ذلك نسمات الأمل البليل فى الاستقرار بعد حياة الفناء فى دنيا الخلود ، شابة نضرة « مثل الطبيعة لا شيب ولا هرم » كأنها لم تعرف السار البهيج والقاتم الحزين من صور الحدثان ، وصروف الزمان .

إنه يقول هذا المعنى فى هاته الأبيات الروائع :

يا قلب كم قد تمليت الحياة وكم ... راقصتها فرحاً ما مسك السأم
وكم توشحت من ليل ومن شفق ... ومن صباح توشّى ذيله السدم
وكم نسجت من الأحلام أردية ... قد مزقتها الليالى وهى تبتسم
وكم ضفرت أكاليلا مورّدة ... طارت بها زَعْزَعٌ تدوى وتحتدم
وكم رسمت رسوماً لا تشابهها ... هذه العوالم والأحلام والنظم
كأنها ظلل الفردوس حافلة ... بالحور ثم تلاشت واختفى الحلُم
تبلو الحياة فتبليها وتخلعها ... وتستجدّ حياة مالها قِدم
وأنت أنت شباب خالد نَضِرٌ ... مثل الطبيعة لا شيب ولا هرم

إن التيجانى لا يقل عن صاحبه الشابى مقدرة فى صوغ الانفعالات الوجدانية والحالات النفسية فى صورة تخيل « لقارئها أنه يناجى نفسه ، ويحاور ضميره ، لا أنه يقرأ قطعة ممتازة لشاعر ممتاز » .

نقدم لك منها هذه القصيدة العصماء فى روحها ومعناها ، وفيما تحمل من أسى وشجن ، ومن دموع وآلام . هى قطعة تفجرت عن نفس ممزقة ، ونفثة من صدر مصدور عانى تنكر الصديق ، وجفاء الناس ، وقسوة المرض ، وتكالب المصاعب والمصائب . يقول التيجانى ، وهو على فراش الموت ، مخاطباً صديقه أنيس :

أرأيت الصديق يأكلـه الـدا ء ويشوى عظـامه المحـراق
مارد هـدّه السقـام ولـكن صبره الجم للضـنى دفّـاق
جف من عوده النّدَى فتعرّى وتنفّـت من حـوله الأوراق
وذوى قلبـه النضـير وقد كا ن له فى زمـانه تخفـاق
رحم الله عهـده فلـئن عـا د فعنـدى لدهـرنا ميثـاق

* * *

وأنا اليوم لا حراك كأن قـد شدّ فى مكمن القـوى أوثـاق
بت أستنشق الهـواء اقتسـاراً نفس ضيق ، وصـدر طـاق
وحنايا معـروقة ، وعيـون غائرات ، ورجفـة ، ومحـاق
ما لنا دون ذا احتيال فـإن الله فى علمـه الشئون الدقـاق
لى رجـاء فى رحمـة الله لمـا وسعت فى الحيـاة مالا يطاق
فالشفاء الشفـاء يا رب والعفـو ، زدهـا قوى أذاهـا الوثاق

منتخبات من شعر الشاعرين

شعر التيجانى :

من الصعب على الباحث الناقد أن يورد أمثلة كثيرة من شعر الشاعر ، على سبيل الاستدلال فيما يتعرض له من بحث واستقراء . وإنما يحاول ، بما يأخذ من أبيات بعض القصائد ، أن يلقى ضوءاً يُعين القارئ الكريم على وضع يده فى مفتاح شخصية الشاعر الذى يتصدى له بالدراسة والتحليل .

لذلك رأيت إكمالا للشرح ، وتبياناً للمشابهة ، التى عقدت فصولا طوالا بسبيلها ، أن أورد هنا بعض القصائد من شعر الشاعرين ، ليقرأهما القارئ ويستقرئ بنفسه أوجه الشبه ما بين الشاعرين الكبيرين ، فى الأسلوب ، وطريقة عرض الأفكار والآراء ، والصِّلات التى تجمع ما بينهما فى الفلسفة والنفسية ، والاتجاه فى الحياة اتجاهاً نبيلا ، مصدره نبل العاطفة ، ويقظة الضمير ، وسمو الأخلاق .

وإليك نبذة اخترتها من شعر التيجانى يوسف بشير .

أنبياء الحقيقة

الإله العظيم ، والحق أكبر | برأ الخلق من تراب وقدّر
ربّ نفس من عنصر الفكر سوّا | ها ، ونفس من حمأة الطين صوّر
ودماء من الحقيقة أجرا | ها ، ومن صخرة المواهب فجّر

* * *

كم قبيل من الفلاسفة الأو | لى ، وكم أشعث هناك وأغبر
كتب الحق فى صدورهم رم | زين من آية الخلود وسطّر
أنبياء من الحقيقة فى أيـ | ـديهم من مشاعل الله مجهر

* * *

رب هبنى رضاك من أين صاغت | كفك الطلسم الخفى المستّر ؟
رب هبنى رضاك ، والعقل من ذا | عاقه أن يبينَ فينا ويظهر
خفيت ذاته عليه أأضحى | عرضاً فى الزمان أم ظل جوهر ؟
يدهش الفكر نفسه ، ويحار الـ | ـعقل فى كهنه إذا ما تحرر
صغته من قُوًى بنيت الجبال الشـ | ـم منها ، وكنت بالعقل أخبر
فتخيرته عناصر أدنا | ها انفجار على العوالم أكبر
ثم أعميته وأرهفت أذنيـ | ـه وأطلقته يقوم ويعثر

* * *

أيها العقل أنت يا حـــيرة العقـ ل ، ولمـــا تكن بنفسك أجـــدر
يا قُـــوى تهـــدم الحيـــاة وتبنيـ ـها وتذرو الورى هبـــاء وعثير

كم خبيء من دون فجرك أضحى وخفيّ تلقاء ضوئك أسفـــر
أإلَــهٌ فى الأرض أنت أم الشيـ ـطان ينهى فى العالمين ويأمـــر ؟
وجنون أم أنت عقل وموجو د حقيق، أم أنت وهم مصور ؟

من أغوار القلب

يا طرير الشباب من صاغ هذا الـ ـحسن فى زهوه وفى استكبـــاره ؟
من أذاب الضياء فيه ومـــن نغّـ ـم شجو الهوى عـــلى أوتاره ؟
من رمى، من أصاب من صوّر الفتـ ـنة ، من زرّهـــا على أزراره ؟
والفتور الذى بعينيك مـــن موّ ه سحر الحياة فى أقطـــاره ؟
صاغ هذا الجمال من لم ينم عنـ ـه لصرف الزمـــان أو أغيـــاره
صاغه فى رضا الطفولة مـــن لـيـ ـن ، ومن وقدة العريـــن أثاره
حرت ما الحب ، ما الهوى ، ما التعابيـ ـر اللوائى يبنّ عـــن أسراره
نظرة كالصلاة . . زلفى إلى اللـ ـه وقـــربى لعـــزه واقتـــداره

دنيا الفقير

بنفسى مــن هــان حتى توا ضع فى نفسه كل معنى رفيــع
فتأكله حسرة فى الضمــير وتسحقه خيبــة فى الضلــوع
يبين عليــه انكســار الفــؤا د ومسكنة المستــذل الوضيــع
وفى نفســه ظمأ للعطــور وفى روحه حــرقات وجــوع
ينام عــلى ولــهٍ بالــثراء ويصحو عــلى نسمات الهزيع
فيرفع كفيــه نحــو السماء ويضرع واهاً لــه مــن ضريع
وماذا يقول ، إلهى الــكفاف ويرد منهــا بالبصــير السميع
ويمسح فى وجهه راحتيه ويُغضى تُقًى ، أو رضاً ، أو خشــوع

* * *

بحسبهم مســكة فى الحيــا ة مــاء نمير وعيش مريــع
وخص عــلى جانبيــه الغلا ل ممزقة مشمســات الصدوع

* * *

فيا آهــة مــلء دنيا الفقير ويا أنّةً ملء دنيــا الوجيــع
لأنت لــدى الله أسمــى وأنبـ ـل فى الأرض من بسمات الخليع .

طفل

تبارك الـــذى خلـــق　　من مضغــة ومن علق
سبحـــانه مصـــوّراً　　من حمـــأة الطين حدق
شق الجفون السود واس　　تل من الليـــل الفلق
واستخرج الإنسان من　　محض ريـــاء وملـــق
مفترعـــاً من فمـــه　　سرّ البيـــان فنطـــق
وجاعـــلا بـــين حنا　　ياه فؤاداً فخفـــق
بث القوى فيـــه دماً　　أحمر أو عظمـــاً يقق

* * *

سبحانه كم ألهـــم الـ　　عقل جنـــوناً وحمـــق
يشكو ما يحيـــا وإن　　أشفى على الموت فـــرق

* * *

رمى بهذا الطفـــل فى　　الأرض ومن ثم رزق
رمى بـــه فى موكب الد　　نيا مثـــالا للقلـــق
يدير عينيـــه ، ويسـ　　تفسر عن سر الشفق
كأنه يصرخ : إن　　الموت بالشمس علـــق
أو أنه يعـــرف أن　　الضوء فى الأفق اختنق

نفس

نفس تطاير كالشعا ع وتستحيل إلى حنـين
وتذوب وجداً فى صبا بتها وتخفـت كالأنين
وترف فى وجه الحيـا ة وبين طيّات السنين
فكأنهـا الألم اللـذيـ ـذ مشى على قلب الحزين

* * *

سبحانك اللهم نفـ ـسٌ كلّها عطف ولين
وتر من النـاى المقدّ س من بقايا المرسلين
من قدس داجية الشعو ر، وطهر واضحة الجبين
من كل سحر فى الوجو د وساحر فى العالمين
من مهبط الروح العزيـ ـز وعنصر الجسم المهين
صيغت فكانت حرة أبداً على مر السنين

* * *

نفس موزعة المشاعـ ـر كلّها أبداً عيـون
فى كل رابية تنقـ ـب عن سنا الأمل الدفين
فى النيل تقتحم العبـا ب وتستشيط وتستلين
وهناك فى ثبج الميـا ه وبين مسرحها الأمين

وقفت تتمتم للالـــه بما تقدس أو تديـــن
تستلهم الأدب القويـم ، وتسمع الوحي الرزين

* * *

الله أيتهـــا الـــوديـعة أن تشط بك الظنون
الفجر ملتهب الجـــوانب والدجى شرس حرون
يتزاحمان إليـــك فى ولع وتستبق القـــرون

دنياى

دنياى ، وهى من الدنيا على نفس أثرى من التبر أو أسمى من المال
وهبت للناس من دنيا مطامعهم ما عندها لىَ من نعمى وإقبـــال
فليتركوا لىَ أحلامى وما نسجت حولى من الضنك إن لم يرضهم حالى
وهبتهم من لذاذاتى وصمت فلم أطعم لذيذاً ، ولم أفطر على حال
ولا غنيت ، وما أبغى ولا رغبت دنياى فى وفرة منها وإقــلال
وعدت أنعم فى عدمى ويسعدنى أنى تخففت عن إصرى وأثقالى
أولئك الناس لم أطرق حقائقهم فالحسم بى لا أهلى ولا آلى
جانبت باطل أيامى وزهّدنى فيها خوادع ما يطفو على الآل

فى الموحى

أذن الليل يا بنى المشـــاعر وعفت ضجة ، ونامت مزاهر
دفق العطر فى صدور الروابى مستجيشاً وفاض ملء المحاسر

* * *

قم لموحاك فى الدجى بين صحوا ن ندىٍّ وبين سهوان ساكر
يرقب البدر مطلع الروح منها وتستقــدم النجوم البشــائر
طبعت ساعة التنزل دنيا ك بوجد كوجد هيمان ذاكر
كلها بدلت محــاريب نشوى تحت فيض من روعة الوحى ماطر

* * *

ساعة يخلد الرضا فى ثواني ها ويحيي فى كل خفقة ناظــر
جوها المعبدى يعمره الصمـ ـت بهمس من الوساوس فاتــر
ويفور الســكون فيــه ويدوى كدوى الظنون فى قلب حائر
قم ونفّض من ظلمة الأرض ساقيـ ـك ، وطر فى الشذى عدتك المخاطر
خلّ أهلا ، وجاف دنيا صحاب وتنكب أخاً ، وجانب معاشر
ها هنا هيّأ الهوى لك ملــكاً قمريًّا على عروش الأزاهر
دولة من مواكب النور حفّت عالماً من عرائس الشعر زاهر

* * *

قم لموحاك فى الدجا بين صحوا ... ن ندى وبين سهوان ساكر
ينفخ الله فى مشاعرك اليق ... ظى وجوداً فخم التصاوير فاخر
ويفجر لك الغيوب وينشر ... بين عينيك عالماً من ذخائـــر
وأهد تلك التى بنفسك منهـــا ... أرجٌ من مجاجة الحب طاهر
زاهراً أنجبت حدائق جنـــا ... ت أفانينه وروضـــة شاعـــر
ينبت الحب من شذى منه مسكو ... ب على القلب دافق فى المشاعر
يتطرى بــــه الفؤاد وينـــدى ... كل حس ويرتوى كل خاطر
يصنع القلب للهوى من معانى ال ... عطر فيه ما لا تصوغ الأزاهر
ويسوى شخـــوصه ويجليـ ... ـها فنوناً مما يصور ســـاحر
فجرت فى دمى نواسمـــه النو ... ر وماجت أنفاسه فى الخواطر
فاهدها وحيهـــا فكل جميل ... يلتقى حسنه بها فى المصايـــر

نخبة مختارة من شعر
أبي القاسم الشابي

صوت من السماء

في الليل ناديت الكواكب ساخطاً ... متأجج الآلام والأوصاب
الحقل يملكه جبابرة الدجى ... والروض يسكنه بنو الأرباب
والنهر للغول المقدسة التي ... لا ترتوي ، والغاب للحطاب
وعرائس الغاب الجميل هزيلة ... ظمأى لكل جنى وكل شراب
ما هذه الدنيا الكريمة ويلها ... حقّت عليها لعنة الأحقاب
الكون مصغ ، يا كواكب خاشع ... طال انتظاري فانطقي بجواب
فسمعت صوتاً ساحراً متموجاً ... فوق المروج الخضر والأعشاب
وحفيف أجنحة ترفرف في الفضا ... وصدى يرن على سكون الغاب
الفجر يولد باسماً متهللا ... في الكون بين دجنّة ... وضباب

الأشواق التائهة

يا صميم الحيــاة إنى وحيد	مدلج تائه ، فأين شروقك ؟
يا صميم الحيــاة إنى فــؤاد	ضائع ظامئ فأيــن رحيقك ؟
يا صميم الحيــاة قد وجم النا	ى وغام الفضا فأين بروقك ؟
يا صميم الحيــاة أين أغانيـ	ـك فتَحتَ النجوم يُصغى مشوقك
كنت فى فجرى الموشّح بالأحـ	ـلام عطراً يرف فــوق ورودك
حالماً ينهــل الضياء ويصغــى	لك فى نشوة بوحى نشيــدك
يا صميم الحيــاة كم أنا فى الدنـ	ـيا غريب أشقى بغربة نفسى
بين قــوم لا يفهمون أناشيـ	ـد فؤادى ، ولا معانى بــؤسى
فى وجــود مكبّــل بقيــود	تائه فى ظلام شك ونحس
فاحتضنّى وضمنى لك بالمــا	ضى فهذا الوجود علة بؤسى

* * *

ليتنى لم أفــد إلى هذه الــدنـ	ـيا ولم تسبح الــكواكب حولى
ليتنى لم يعانق الفجــر أحلا	مى ويلثم الضيــاء جفــونى
ليتنى لم أزل كما كنت ضوءاً	فى الوجــود غــير سجــين

السعادة

فما السعادة فى الدنيا سوى حلم ناء تضحى له أيامها الأمم
ناجت به الناس أوهـام معربدة لما تغشتهم الأحـلام والظلـم
خذ الحيـاة كما جاءتك مبتسماً فى كفها الغار أو فى كفها العدم
وارقص على الورد والأشواك متئداً غنت لك الطير ، أم غنت لك الرجم
واعمل كما تأمر الدنيا بلا مضض والجم شعورك فيها ، إنهـا صنم
فمن تألم لم ترحم مضـاضته ومن تجلد لم تهزأ بـه القمـم
وإن أردت قضاء العيش فى دعة شعرية لا يغشى صفوها نـدم
فاترك إلى الناس دنياهم وضجتهم وما بنوا لنظام العيش أو رسمـوا
واجعل حياتك دوماً مزهراً نضراً فى عزلة الغاب ، ينمو ثم ينعدم
واجعل لياليك أحلامـاً مغردة إن الحيـاة وما تدرى بـه حلم

الرواية الغربية

ضحكنا على الماضى البعيد وفى غد ستجعلنا الأيام أضحوكة الآتى
وتلك هى الدنيا رواية سـاحر عظيم غريب الفن ، مبدع آيات
يمثلها الأحياء فى مسرح الأسى ووسط ضباب الهمّ تمثيل أموات

ليشهد من خلف الضباب فصولها ويضحك منها من يمثل ما ياتى
وكل يؤدى دوره وهـــو ضاحك على الناس مضحوك على دوره العاتى

الناس

ما قدس المثل الأعلى وجملــه فى أعين الناس إلا أنــه حلم
ولو مشى فيهم حيًّا لحطمـــه قوم وقالوا بخبث : إنه صنم
لا يعبــد الناس إلا كل منعدم ممنــع ولمن حاياهم العــدم
حتى العباقرة الأفذاذ حيّهم يلقى الشقاء ، وتلقى مجدها الـرمم
الناس لا ينصفون الحى بينهـــم حتى إذا ما توارى عنهم ندمـــوا
الويل للناس من أهوائهم أبـــداً يمشى الزمان وريح الشر تحتدم

تونس الجميلة

لست أبكى لعسف ليـــل طويل أو لربع غدا العفـــاء مراحه
إنما عـــبرتى لعبء ثقيـــل قد عرانا ولم نجـــد من أزاحه
كلما قام فى البـــلاد خطيب موقظ شعبـــه يريد صلاحه
أخمدوا صوته الإلـهى بالعسـ ـف أماتوا صـــداحه ونواحـــه
ألبسوا روحه قميص اضطهاد فاتك شائك يـــرد جماحـــه

وتوجوا طـــرائق العسف والإر هاق معنْه وما توخَّى السماحـــه
هكذا المصلحون فى كل صوب رشقات الردى إليهـــم متاحه

* * *

أنا يا تونس الجميلة فى بحـ ـر الهوى قد سبحت أىّ سباحه
شرعتى حبك العميـــق وإنى قد تذوقت مـــرّه وقُراحـــه
لا أبالى إذا أريقت دمـــائى فدماء العشاق دومـــاً مباحه
إن ذا عصر ظلمـــة غير أنى من وراء الظلام شمْتُ صباحه
ضيّع الدهر مجد شعبي ولكن ســـترد الحياة يوماً وشـــاحه

الصباح الجديد

اسكتى يا جـــراح واســـكنى يا شجـــون
مات عهـــد النواح وزمـــان الجنـــون
وأطـــل الصبـــاح مـــن وراء القـــرون

* * *

فى فجـــاج الهـــوى قـــد دفنت الألـــم
ونـــثّرت الدمـــوع لـــرياح العـــدم
واتخـــذت الحيـــاة معـــزفاً للنغـــم
أتغـــنى عليـــه فى رحاب الزمـــن

* * *

وأذبت الأسى في جمال الوجود
ودحوت الفؤاد واحةً للنشيد
والضيا والظلال والمُنى والحنان

* * *

اسكتى يا جراح واسكنى يا شجون
مات عهد النواح وزمان الجنون
وأطل الصباح من وراء القرون

* * *

فى فؤادى الرحيب معبد للجمال
شيدته الحياة بالرؤى والخيال
فتلوت الصلاة فى خشوع الظلال
وحرقت البخور وأضأت الشموع

* * *

إن سحر الحياة خالد لا يزول
فعلام الشكاة من ظلام يحول
ثم يأتى الصباح وتمر الفصول
سوف يأتى ربيع إن تقضَّى ربيع

* * *

اسكتى يا جراح واسكنى يا شجون
مات عهد النواح وزمان الجنون
وأطل الصباح من وراء القرون

* * *

من وراء الظلام وهدير المياه
قد دعانى الصباح وربيع الحياة
يا له من دعاء هزّ قلبى صداه
لم يعد لى بقاء فوق هذى البقاع

* * *

الوداع الوداع يا جبال الهموم
يا ضباب الأسى يا فجاج الجحيم
قد جرى زورقى فى الخضم العظيم
ونشرت القلاع فالوداع الوداع

ألحان السكرى

قد سكرنا بحبنا واكتفينا يامدير الكؤوس فاصرف كؤوسك
واسكب الخمر للعصافير والنحل ونحل الثرى يضم عروسك

* * *

مالنا والـــكئوس نطلب منهـــا نشوة والغـــرام سحـــر وسكر
خلنا منك فالربيـــع لنا سا قٍ وهذا الفضـــاء كأس وخمر

* * *

نحن نحيا كالطير فى الأفق السا جى وكالنحل فوق غصن الزهور
لا ترى غير فتنة العالم الحـــىّ وأحـــلام قلبهـــا المسحـــور

* * *

نحن نلهو تحت الظلال كطفلـ ين سعيدين فى غرور الطفولة
وعلى الصخرة الجميلة فى الواد ى وبين المخـــاوف المجهـــولة

* * *

نحن مثل الربيع نمشى على أر ض من الزهر والرؤى والخيـــال
فوقها يرقص الغـــرام ويلهـــو ويغنى فى نشـــوة ودلال

* * *

قد تركت الوجود للناس فليقـ ضوا عليه الحياة كيف أرادوا
وذهبنا بلبـــه وهـــو روح وتركنـــا القشور وهى جمـــاد

* * *

قد سكرنا بحبنـــا واكتفينـــا طفح الـــكأس فاذهبوا يا سقاة
نحن نحيـــا فلا نريد مزيـــداً حسبنا ما منحتنـــا يا حيـــاة

* * *

حسبنا زهـــرنا الذى نتنشّى   حسبنا كأسنا الذى نترشف
إن فى ثغرنا رحيقـــاً سماويـــاً   وفى قلبنـــا ربيعـــاً مفـــوّف

* * *

أيها الدهر ، أيها الزمـــن الجا   رى إلى غير وجهـــة وقـــرار
أيها الكون ، أيها الفلك الـــدو   ار بالفجـــر والدجى والنهـــار
أيها المـــوت أيهـــا القدر الأع   مى قفوا حيث أنـــتمُ أو فسيروا
ودعونا هنـــا تغنى لنـــا الأحلا   م والحب والـــوجود الـــكبير
وإذا ما أبيـــتم فاحملـــونا   ولهيب الغـــرام فى شفتينـــا
وزهور الحيـــاة تعبـــق بالعط   ر وبالسحر والصبا فى يدينـــا

